حين يراقصني الموت

حين يراقصني الموت

إسراء حمدي

الطبعة الأولـى : 2025

تصميم الغلاف : إسلام أحمد

تدقـيق لغـوي : أحمد حمدي

إخـراج فنـــي : يوسف الفرماوي

رقـــم الإيـداع : 26126/ 2024

الترقيم الدولي I.S.B.N: 978-977-8842-22-7

جميع الحقوق محفوظة ©

لا يسمح بإعادة نشر أو نسخ أو تصوير أي جزء من هذا الكتاب، ولا إصداره بأي شكل من الأشكال ورقيًا أو إلكترونيًا أو صوتيًا إلا بإذن خطي من الناشر.

المُحرّر

info@almoharer.com

01013146678

01124549848

daralmoharrer

حين يراقصني الموت

رواية

إسراء حمدي

المُحرِّر

إهداء

إلى من كانت ولا تزال دائمة العطاء دون أن تأخذ..

إلى من أفنت عمرها ولم تنتظر يومًا كلمة شكر أو ثناء..

إلى مـن إن أهديتهـا عمـري وروحـي وجميـع مـا أملـك فلـن أوفيهـا جـزءًا مـن حقهـا..

إلى مـن أوصلتنـي إلى مـا أنـا عليـه الآن.. فلولاها ما كنـت "أنا"..

إلى شعاع النور الذي أتلمّس طريقي من خلاله..

إلى مـن أهدتنـي حياتهـا.. راحتهـا.. سـعادتها.. عافيتهـا.. "دون مقابـل"

إلى تاج رأسي..

إلى الغالية والحبيبة والأخت والصديقة

إلى "أمي"

بارك الله في عمرها وأمدها بالصحة والعافية..

إلى إخوتي حبيباتي وشقيقات قلبي..

إلى أخـي الأكـبر، الحبيـب المِعطاء، المدقـق اللغوي لأعمـالي والذي لـم يبخـل عـليّ يومًـا بمعلوماتـه ووقتـه وجهـده، دون مقابـل..

إلى زوجي الغالي جدًّا، السند الدائم والدعم والعون..

"محبة كبيرة تغمركم".

حـــين يراقصنـــي المـــوت، أحتضـــن ضحايـــاي، أراهـــم يتهـاوون تحـت قدمي، يخـورون، ينازعـون لحظاتهـم الأخيرة بـين أسـف ونـدم، حـزن ويـأس، وربمـا فـرح وانتشـاء، أو بالأحـرى "لـذة انتصـار" يودعـون بهـا دنيـا فانيـة زهدتهـا أرواحهـم المنهكـة، وضلوعهم المهشـمة بقبضة جـلاد لا يرحم..

حـين يراقصنـي المـوت، يتجـلى أمـام عينـي مـا خفـي عنكـم معـشر البـشر، أبـصر الظالـم والمظلـوم.. أستشـعر ضربـات قلـب الأول، يتواثـب مـن مكانـه فزعًـا وهلعًـا مـن لقـاء خالقـه، وأسـمعُ تغريـد قلـب الثانـي، يبكـي فرحًـا، ويتـوق شـوقًا للقـاءٍ طـال انتظـاره.

حـين يراقصنـي المـوت، وإبـان تسـاوي الرقـاب، يهتـف الجيـاع والمـشردون، بينمـا يصيـح الطغـاة والمتكـبرون، يشـجبون ويسـتنكرون، ومـا بـين فـرّ وكـرّ وتدافـع بالمناكب والأقـدام، تحـين اللحظـة الحاسـمة وتهـوي رايـة النـصر مـن عـلٍ لتطيـح برقبـة مـن ظلـم وتجـبر، وظـن أن الدوائـر لـن تـدور يومًـا عـلى الباغـي.

أنـا هنـا لأخـبرك أن الظلـم زائـل والإنصـاف قائـم، وأن سـحب الظـلام سـتنجلي يومًـا ليقـص التاريـخ حكايـة، روتهـا "مِقصلـة العـدل" الباقيـة، بينمـا اندثـر أبطالهـا وباتـت ذكراهـم مجـرد كلمـات، خُطـت فـوق بضعـة سـطور، قـد يقـر بهـا القـارئ والمسـتمع أو ينكرهـا، بيـد أنـه لا يملـك أحقيـة تحريفهـا أو المزايـدة عـلى مصداقيتهـا.

***

هـا أنـا أرقـد كجيفـة نتنـة، وحيـدًا.. ظـلام داجٍ خيـم عـلى روحـي يخنقهـا ويقتلنـي.. القـبر يضيـق شـيئًا فشـيئًا. أمـا هـذا الكائـن القابـع أمامـي، يحاسـبني عـلى أفعـالي، فتبًّـا لـه. لا أعلـم لـه طـولًا مـن عـرض، لا يوصـف باللسـان ولا ترسـمه ريشـة فنـان، أراه هلاميًّـا، هلاميًّـا فقـط.. أسـود اللـون! لسـت متيقنًـا، لكـن عينيـه ومنكبيـه العريضـين يؤكـدان أنـه بـشر مـن لحـم ودم.

اللحـد بالـكاد يكفينـي، والـتراب ما انفـك يغطينـي.. كيف الخـلاص! وإلى متـى تظـل روحـي حبيسـة تلـك الحفـرة؟ أهـذا مـا وصفـه البعـض بعـذاب الـروح بعـد المـوت، أم أراد أحدهـم بـث الخرافـات في رأسي ودب الرعـب في قلبي! يـا إلهي، فليخبرنـي حتـى هـذا الكائـن في أي مقـبرة تقبـع جثتـي.

كيـف مـت؟ أو ربمـا قُتلـت! كيـف آلـت بـي الحـال إلى مـا أنـا عليـه الآن، وأيـن أنـت يـا سـجينة القلـب والـروح؟ لا ألومـك يـا حبيبتـي إن تخلّيـت عنـي، فقـد تذوقـتِ معـي مـرارة الأيـام وتجرعـتِ قسـوة الليـالي الطويلـة، التـي قضيتِهـا تحـت إمرتـي وسـطوتي، ناهيـك عـن قُبـح وجهـي الـذي صـدأت عينـاك بالنظـر إليـه، لا بـد إذن أنـك أول الشـامتين وآخـر المتقعـين لفقـدي.. لا ألومـك.. لا ألومـك.

لقد سئمت السؤال، فليبدأ الحساب إذن، ولتزأر راية العقاب...

***

المحاكمة الأولى

(باريس)

1788/ 12/ 10

فقيرة المال، ولو قورنت بالنبيلات، لاستحقت أن تكون أكثر منهن مالًا وأعز نفرًا..

جميلة هي، تشبه القمر ليلة اكتماله في سمائه اللامعة..

هيفاء تسير بين الحشود فتميل لها الرقاب، ولا يميل قلبها أبدًا..

غنجُها عاصفة، تهب رياحها كلما أمطرت السماء معاني الحسن والدلال، فتُختزل جميعها في كلمة تنساب بين حبتي توت قُطفتا من ثمار الجنة، أو نظرة تلوح للمحبين كقبلاتٍ تروي عطش قلوبهم المعذبة في هواها، على أمل التفافة واحدة من جيدها، علّها تبصر ما أخفته العيون والأفئدة.

يتوق إليها الرجال جميعًا، صغيرهم وكبيرهم، غنيهم وفقيرهم، يبحثون بين ثناياها وانحناءات جسدها -الأشبه بلوحة فنية مكتملة الأركان- عما يرضي تخيلاتهم الجامحة، ويشبع احتياجاتهم المتنافية مع هيئتهم

المزريـة.. وكيـف يقـدر هـذا الكهـل الخمسـيني عـلى مجـاراة فتـاة لـم تبلـغ العشريـن؟ بـل كيـف يصمـد أمامهـا ذاك الشـاب الثلاثينـي الـذي بالـكاد يجنـي قـوت يومـه، وربمـا اضطرتـه الظـروف ليكمـل عشـاءه نومًـا، علّـه يتـذوق في الحلـم مـا لـم يقـوَ عـلى تذوقـه يقظًـا، فتتلـوى أحشـاؤه ويتضـور عقلـه لاهثًـا، مـدركًا أن الحلـم تحـوّل إلى كابـوس مـروع أجـبره عـلى النهـوض مـع بـزوغ الفجـر، ليبـدأ رحلة باهتـة الملامـح امتـدت جذورهـا إلى اليـوم الـذي اشـتد فيـه سـاعده، ليكمـل مسـيرة والـده الفـلاح الـذي طالـه مـن الظلـم مـا طـال "باريـس" بأكملهـا.

"ماريـان" الفاتنـة، ابنـة الفـلاح "فيكتـور"، التـي كتـب عليهـا الشـقاء والتعاسـة منـذ نعومـة أظفارهـا، إذ لـم يـرزق فيكتـور بأبنـاء غيرهـا، فقُـدر لهـا أن تكـون جميـع أبنائـه، ممارسـة بذلـك دورًا لا يليـق بفتـاة مثلهـا، تحديـدًا بعـد انتحـار والدتهـا بمجـرد بلوغهـا الثالثـة مـن عمرهـا، فكانـت تلـك اللحظـة الفاصلـة التـي تبدلـت فيهـا حـال " فيكتـور" المحـب لابنتـه، السـاهر عـلى راحتهـا، حتـى إن طلبـت نجمـة مـن السـماء لـن يتوانـى عـن محاولـة الوصـول إليهـا وجلبهـا، أمـا الآن وقـد انطفـأت شمسـه المشرقـة في لياليـه الحالكـة، فلـم يكـن بـد مـن مواجهـة تكاليـف الحيـاة الشـاقة، ولـو قسـا قلبـه.

مرغمًـــا اصطحـــب "ماريـــان" للعمـــل معـــه في مزرعـــة الكفـــاف، مؤمنًـــا أن رايـــة القـــدر أعلنـــت غضبهـــا وأن الحـــظ لـــم يكتـــب لأمثالـــه المنســـيين، المتوهمـــين أن هـــذه الكلمـــة تحكمهـــم، بينمـــا الحـــظ منهـــم بـــراء، فمـــا هـــي إلا نغمـــة تتغنـــى بهـــا أفواههـــم تحـــت وطـــأة الأحمـــال الثقيلـــة العابرين بهـــا كدابّـــة مُســـيرة، فإمـــا العيـــش مهانـــين أو الدفـــن في مقـــبرة الحيـــاة.

ولأن الطفـــل مـــرآة أبيـــه فـــلا بـــد أن يتجـــرع معـــه كـــؤوس البـــؤس والـــذل، بـــل يُدفـــن معـــه مفتقـــرًا لـــكل معانـــي الطفولـــة، وهنـــا تحديـــدًا اجتمعـــت كلمتـــا الســـعد والنحـــس لتمثـــلا جملـــة عاشـــتها "ماريـــان" بـــكل مآســـيها، فأضحـــت -رغـــم جمالهـــا- آلـــة بشريـــة، لا تملـــك مـــن آدميتهـــا ســـوى نـــداء للطبيعـــة تُلبيـــه وفـــق مواقيـــت عملهـــا، ووجبة تقاســـمها أباهـــا عقـــب يـــوم شـــاق مـــن زراعـــة المحاصيـــل في إحـــدى أراضي المزارعـــين الأغنيـــاء، ولـــو أن هنـــاك عـــدلًا في هـــذه الحياة لـــكان فيكتـــور مالـــك الأرض والمنتفـــع مـــن خيراتهـــا، ولكـــن، أيـــن العـــدل في بلـــدة أبـــى كل أحمـــق فيهـــا إلا أن يعيـــش ذليلًا، مســـلوب الحريـــة! فباتـــت القصـــور الفارهـــة تحـــت إمـــرة الصعاليـــك، بينمـــا أســـياد القـــوم -خلقًـــا وعلمًـــا- خـــدام فيهـــا.

والحـــق يقـــال، كان " فيكتـــور" أحمـــق مـــن الطـــراز الأول، يعيـــش عـــلى أطـــلال حبيبتـــه، لا يســـأل عمـــا لـــه ومـــا عليـــه، ولا تعنيـــه مـــن الأســـاس كلمـــة "حقـــوق" فقـــد أطلـــق منـــذ

زمـن زمـام عقلـه لساسـة البلـدة، وحامـلي صكـوك الغفران، يسـيرونه كمـا يشـاؤون، والآن حتـى إن أخـبروه بأهميـة التخـلي عـن رغيـف الخبـز الـذي يتقاسـمه، لقـال سـمعًا وطاعـة، موقنًـا في قـرارة نفسـه أن النبـلاء فقـط يسـتحقون العيـش في ظـل حيـاة مرفهـة كريمـة، بـل إن التضحيـة واجبـة عـلى هـؤلاء الفلاحـين.

حسـنًا، لا بـأس بقليـل -أو ربمـا كثـير- مـن التنـازلات في سـبيل حمايـة الوطـن، ولـئن سـألته عـن وجـه الاقـتران بـين رفاهيتهـم وحمايـة الوطـن، لثـار عـلى الفـور وأخـبرك أنهمـا مقترنـان منـذ قديـم الأزل، وكيـف لا؟ إذ لا يتـم اختيـار الجنـرالات والضبـاط سـوى مـن هـذه الطبقـة النبيلـة، التـي ترعرعـت بـين أروقـة القصـور والبـلاط الملكـي، وتمتعـت بالامتيـازات التـي تؤهلهـا لمنصبهـا كافـة، وعـلى هـذه المعتقـدات الانهزاميـة تغـذى "فيكتـور" ومئـات الفلاحـين، ونمَـت فكـرة "عـدم الاسـتحقاقية"، فتولـد لديهـم شـعور عـارم بالعبوديـة المطلقـة.

يعيشـون عـلى فتـات الخبـز، لتشـبع بطـون النبـلاء.. ينامـون عـلى القـش أو حتـى يفترشـون الطـين، لينعـم الملوك والساسـة بـأسرّة مـن ريـش.. ينسـجون خيوطًـا مرقعـة لا تقـي أجسـادهم المتآكلـة، ليتدثـر القساوسـة بالحريـر.. تلبس نسـاؤهن أسـورة مـن حديـد، لترتـدي النبيـلات الصلبـان الماسـية في أعناقهـن.. يُسـاقون إلى منازلهـم زحفًـا، ليتجـول

الصبـي الصغـير "الثـري" بعربـة الخيـول الملكيـة، ولا بـأس إن اختـار التسـلية برؤيـة الفلاحـين العاملـين بـين روث الحيوانـات، متسـائلًا بفظاظـة عـن سـبب هيئتهـم المزريـة، ليجيبـه السـائق بمـا لقّنـه أسـياده، فيتمـادى سـاخرًا منهـم أو ملقيًـا عليهـم بعـض النـكات السـخيفة، والأدهـى أنهـم في كل مـرة يضحكـون.. بـلا ملـل.. ولكـن لا عجـب، فلـكل داء دواء إلا العبوديـة، إن تملكـت مـن نفسٍ أهلكتهـا، وإن تسربت بـين العقـول أفسـدتها، وإذا توغلـت في روحٍ أزهقتهـا، حتـى إن قُـدر لمعتنقهـا الشـفاء بأثمـن العلاجـات، تكالبـت عليـه معتقداتـه الراسـخة "فأبطلتهـا".

أمـا "فيكتـور" فلـم يكـن عبـدًا لأسـياده فقـط، بـل لفكـره ومعتقداتـه أيضًـا.. ينعتـه الفلاحـون بأنـه أنقـى الأشـخاص بينهـم، أطيبهـم قلبًـا، يملـك روحًـا مقدسـة، ولديـه مـن الشـفافية مـا يعينـه عـلى اختياراتـه وقراراتـه الحاسـمة أو حتـى التافهـة، حتـى في أشـد المواقـف وأكثرهـا صعوبـة، دائمًـا مـا يرشـده عقلـه المُضمحـل إلى الصـواب، أمـا هـو نفسـه فـلا يعلـم حقيقـة الأمـر، إن كان بالفعـل يتمتـع بتلـك الشـفافية أم هـي محـض خرافـات تناقلهـا سـكان البلـدة!

جـل مـا عرفـه أنـه منسـاق منـذ وفـاة زوجتـه وراء عرافة البلـدة الشـهيرة "مـدام لوتورمـان"، وتنبؤاتهـا التـي -كمـا يزعـم- لـم تخِـب يومًـا، الأمـر الـذي أبقـاه سرًّا بينـه وبـين

نفسه، فحتى "ماريان" لم تعرف أن نبوءة العرافة هي السبب الرئيس في عملها مع أبيها، وذلك بعد تنبؤها بأن طفلته ستبلغ القمة بعملها في زراعة المحاصيل، كيف؟ ولماذا؟ لا يدري، الأهم هو تنفيذ الأوامر مهما كلفه الأمر.

وهي نقطة تضاف إلى سجل حماقاته الحافل بمواقف لا تُعد ولا تُحصى، لكن يبدو أن نهاية هذا السجل قد خُطت بنبوءة العرافة الأخيرة، قبل اختفائها من البلدة ليندثر اسمها إلى الأبد.. وهنا تحديدًا تحولت حياة "فيكتور" إلى سلسلة من الكوابيس، إذ عاش أسوأ أيامه وأحلك لياليه، مؤمنًا بأن حدثًا جللًا في انتظاره، فكلام العرافة محقق لا محالة، وما دامت أخبرته أنه سيلقى حتفه ويغدو رأسًا بلا جسد، مجرد جمجمة ملقاة وسط آلاف الجماجم البشرية بين سرداب مظلم لا يعرف له بداية من نهاية، فحريٌّ به أن يقضي ما تبقى من أيامه في انتظار ذلك المصير المجهول.

هكذا أفنى أيامه التعيسة في المنزل تارة، والكنيسة تارة أخرى، يستمع إلى خطابات رجال الدين وتصريحاتهم "التي لا تسمن ولا تغني من جوع"، مجرد مسكنات طويلة الأمد لإخماد عقول وبطون المواطنين، والتي لم تفشل مرة في تخدير "فيكتور"، حتى إنه اعتزل أصدقاءه تدريجيًّا، ونادرًا ما ارتاد الحانة في نهاية

الأسبوع ليسمع الأخبار من محبي الثرثرة والنميمة، كما اعتاد سابقًا.. أصبحت حياته باهتة بلا ملامح، يقضي ساعاته بلا عمل، متخذًا من سريره المهترئ معزلًا، ومن وسادته خلوة لرأسه المترع بالهواجس والمخاوف، يفكر في كُنه ذاك السرداب اللعين الذي سيصبح مأوى لجمجمته، وكيف ستواجه "ماريان" أعاصير الحياة وقد أثقل كاهلها بالمهام الموكلة إليه كافة! حسنًا، لا بأس ولا خوف عليها، فحتمًا ستصل إلى القمة كما أخبرته العرافة، فالعرافة لا تخطئ أبدًا.. هكذا أسكت ضميره الأبوي الذي لم يتيقظ لأكثر من دقيقة، وهي عادته منذ سنوات، إذ لم يترك مجالًا حتى لمعاتبة نفسه على سبيل الشعور بالذنب أو التقصير.

دقيقة أخرى مرت عقب ثرثرة عقله الفارغة، قبل دخول "ماريان" الغرفة حاملة بين كفيها المتشققتين بعض الطحين، لتخبره بوجه عابس وصوت مبحوح أنه لا يوجد خبز لهذه الليلة أيضًا.. سألها مطيلًا النظر إلى كفيها:

- وماذا عن الطحين؟

أطرقت بصرها ثم نثرته على المنضدة الخشبية المقابلة لها، وشرعت تزيح حزام خصرها ببطء شديد، للحفاظ على ما ادخرته من بقاياه:

- لم أتمكن من سرقة المزيد.

ذهل "فيكتور" ورمقها بنظرة متسائلة، فأردفت دون مراوغة:

- اضطررت لسرقته من المخزن المجاور للخباز، حيث تدافعت النساء أمام المخبز المغلق، حتى إنهن كسرن بابه واقتحمنه على أمل الحصول على رغيف خبز، لكنهن غادرن خاليات الوفاض، يحملن خيبة الأمل بين أكفهن ككل ليلة.. كدت أغادر مثلهن، لكن.. في الحقيقة...

حاولت تحاشي نظرات أبيها المروعة قبل أن تكمل مذعورة:

- بينما كنت على وشك الرحيل نادتني "صوفيا" وأخبرتني أنها تتسلل كل يوم خلسة من النافذة الخلفية، لتحصل على بعض الحبوب أو الطحين المدخر في مخزن "مسيو رنجير"، والمحتكر خصيصًا لتلبية احتياجات النبلاء...

انقض عليها ولم يمنحها حتى أحقية الدفاع إثر لطمته التي هوت على خدها دون هوادة، ثم تبع فعله الأخرق بوابل من الكلمات النابية المصحوبة بالسباب، وأمرها بإعادة الطحين إلى حيث جاءت به، فبطون النبلاء أولى منهما.. وقبل ركلها خارج الغرفة تمهّل دقيقة قبل أن يقبض كفيه حول عنقها:

- آمل أنك لا تقصدين "صوفيا" اليهودية، لأنك في هذه الحالة ستدفعين الثمن، مثلها تمامًا.

بالـــكاد تمكنـــت مـــن انتـــزاع يـــده لتتوســـل بصوتهـــا المتحـــشرج:

- بحـــق المســـيح، ليـــس مـــن أجلهـــا بـــل رأفـــة بطفلهـــا. حســـنًا، ســـأذهب إليهـــا في الحـــال لكـــن عدنـــي ألا تؤذيهـــا، أرجـــوك يـــا أبـــي.

أثـــار حديثهـــا اهتمامـــه فحدجهـــا بنظـــراتٍ تحثهـــا عـــلى الإفصـــاح عـــن المزيـــد، فأردفـــت بينمـــا تتلفـــت حولهـــا كأنهـــا تبـــوح بـــسر مـــن أسرار الكـــون:

- لـــم تقصـــد مـــا فعلتـــه، فقـــد اســـتغل "جـــاك" الرســـام غيابهـــا عـــن الوعـــي عندمـــا غـــادرت الحانـــة ثملـــة، ولمـــا أفاقـــت تحـــت يديـــه وحاولـــت مقاومتـــه بـــكل مـــا أوتيـــت مـــن قـــوة، اكتشـــفت أن ذلـــك الدنـــيء غـــرس بذرتـــه في رحمهـــا.. الذنـــب ليـــس ذنبهـــا، دعاهـــا أحدهـــم إلى مشـــاطرته الخمـــر مجانًـــا فلبَّـــت دعوتـــه دون تفكـــير، ربمـــا أشـــبع الـــشراب قرقرة بطنهـــا التـــي تعـــزف ســـيمفونيتها طـــوال الليـــل، غـــير مدركـــة أن تلـــك الدعـــوة ســـتؤول إلى كابـــوس مـــروع وخـــزي يلحـــق بهـــا طـــوال العمـــر.

لكنهـــا لـــم تطلـــع ســـواي عـــلى هـــذا الـــسر، والآن أمـــارات الحمـــل ســـتتجلى عليهـــا في غضـــون شـــهر أو اثنـــين، لـــذا فقـــد عزمـــت عـــلى مغـــادرة البلـــدة بعـــد أســـبوع ولـــن تعـــود حتـــى تضـــع طفلهـــا.

جثت على ركبتيها وأسندت كفيها إلى ذقنها، تتفحص نظراته بقسمات مضطربة، إلا أن مشاعره لم تحرك ساكنًا أمام توسلاتها وتذللها، فقط حك ذقنه مفكرًا قبل أن يميل عليها بهدوء:

- أعدك بكتمان السر شريطة أن تعيدا ما سرقتماه من المخزن.

ثم أشار بسبابته: "دون إثارة الجلبة والضجة حتى لا يشتبه أحد فيكما".

أومأت برأسها وهمت بالرحيل، فاستوقفها مستنكرًا:

- لا لا، ليس الآن في هذا الوقت المتأخر. اذهبي إليها بحلول الصباح واعقدي معها اتفاقًا، إما إعادة ما سرقته أو المحاكمة والإعدام على الملأ.

- إعدام!

- وهل تتوقعين عقوبة أخرى لمن يختلس من حاجة النبلاء! فضلًا عن كونها يهودية.. لقد أنذرتك ألف مرة من مصادقتها، والآن هذه النتيجة الحتمية للتعامل مع تلك المهرطقة، الرب وحده يعلم الشر الذي كانت ستلحقه بك إن تكرر الأمر.

قبضت بعض الطحين بكفها صائحة:

- أي شر تتحدث عنه! لأجل هذا يا أبي اضطررت للسرقة، أترى! لأجل حفنة طحين وكسرة خبز، فأنا

أتضـــور جوعًـــا وتتلـــوى أحشـــائي كل ليلـــة في انتظـــار رحمـــة الـــرب التـــي يبـــدو أنهـــا لـــن تطالنـــا أبـــدًا، فحتـــى زراعـــة المحاصيـــل لـــم تعـــد تؤتـــي ثمارهـــا.. ثـــم مـــن قـــال إن "صوفيـــا" يهوديـــة؟ لا يعقـــل أن حكمـــت عليهـــا لمجـــرد رفضهـــا أكل لحـــم الخنزيـــر!

– ليـــس لهـــذا الســـبب فقـــط، أنســـيتِ أن جدهـــا لأمهـــا ينحـــدر مـــن أصـــول يهوديـــة؟ ومـــن البديهـــي أن تمـــارس شـــعائر أســـلافها في الـــسر.. مهمـــا كانـــت علاقتكمـــا وطيـــدة فلـــن تطلعـــك عـــلى الحقيقـــة، صدقينـــي.

– لكننـــا ســـمعنا أيضًـــا أنـــه تحـــول مـــن اليهوديـــة إلى المســـيحية.

قالتهـــا وســـكتت فجـــأة، ثـــم أدارت وجههـــا وأخـــذت تخاطـــب نفســـها، إذ ارتـــاد فكرهـــا ســـاحات القهـــر والحـــزن والألـــم، فملاذهـــا الوحيـــد -أبوهـــا- لـــم يمثـــل لهـــا أي حصـــن عـــلى مـــدار ســـنوات فقرهـــا وجوعهـــا وعملهـــا الشـــاق، لِـــم تصدقـــه إذن وتثـــق في وعـــده! ومـــا الـــذي يضمـــن لهـــا أنـــه لـــن يبلـــغ عـــن صديقتهـــا، بـــل عنهـــا إن اضطـــره الأمـــر، وهـــو الـــذي رهـــن حياتـــه وكرســـها لهـــؤلاء الشرذمـــة، الذيـــن نصبـــوا أنفســـهم حمـــاةً لديـــن الـــرب تحـــت رايـــة الديـــوان المقدســـ..

كتـــم صوتهـــا بكـــف خشـــنة متشـــققة، إذ تناهـــى إلى ســـمعه همهمـــات مـــن حديثهـــا ميـــز فيهـــا ســـخطها وثورتهـــا الداخليـــة، فدنـــا منهـــا مزمجـــرًا:

- إيـاك والتطـاول عـلى مـن باركهـم الـرب في سـمائه العليـا، وإلا أضحـت المحاكمـة التاليـة مـن نصيبـك.

نجـت "ماريـان" مـن قبضتـه بأعجوبـة وسـارعت الخطـا نحـو غرفتهـا.. في الوقـت ذاتـه، أخـذ فيكتـور -الـذي لـم يمنعهـا مـن الفـرار- يحـدق في وجـه العرافـة "لوتورمـان"، والتـي تجلَّـت أمامـه مـن العـدم، محـاولًا الاقـتراب منهـا ولمسـها، مبطـلًا بذلـك حجـة عقلـه الـذي طالمـا أراد إقناعـه بأنهـا لا تنتمـي إلى عالمهـم، فـأي إنـسي مهمـا بلغت قوتـه، لن يتمكـن مـن الظهـور والاختفـاء هكـذا في لمـح البـصر.. ثـم...

ثـم مـاذا لـو أن هـذه العرافـة لا وجـود لهـا من الأسـاس! لا يراهـا ويسـمع نصائحهـا سـواه! لقـد أخبرتـه في أول لقـاء لهمـا أنهـا أشـهر عرافـة في البلـدة، ورغـم ذلـك لم يسـمع من قبـل أنهـا ظهـرت لأحـد المحيطـين بـه، حتـى إنـه لا يعـرف لهـا مكانًـا ولا عنوانًـا، ولـم يسـبق وظهـرت لـه إلا بـين ثنايـا الدجـى والطرقـات شـاغرة إلا مـن بعـض الثمـالى والمشردين.

هـوت الأفـكار عـلى رأسـه كإعصـار ضرب مفاهيمـه ومعتقداتـه.. ولـو أنـه مخطـئ في ظنـه ومخاوفـه فلمـاذا لـم يتمكـن بالفعـل مـن الإمسـاك بهـا الآن؟!

لاحـت بسـمة خبيثـة عـلى ثغرهـا المغلـق وأخـذت تتمايـل أمامـه بمـا ظهـر تحـت حجابهـا الأسـود مـن خصـلات رماديـة شـعثاء.. لـم تتفـوَّه بكلمـة واحـدة، وكلمـا اقـترب منهـا خطـوة ابتعـدت عنـه خطـوات، كأنهـا سراب المـاء في

الصحـــراء.. يشـــعر بأنفاســـها اللاهثـــة، ومـــع ذلـــك لا تلفـــح وجهـــه.. يســـمع صـــوت ترنيمتهـــا المميـــزة، إلا أنهـــا تطِـــنّ في أذنـــه كأنهـــا عـــلى بعـــد أمتـــار.

وأخـــيرًا، اســـتقر جســـدها عنـــد نافـــذة الغرفـــة فضمـــت كفيهـــا تحـــت ذقنهـــا المرتجـــف، وأرخـــت عينيهـــا نحـــو أبنيـــة المدينـــة الصامتـــة، الشـــاخصة كالقبـــور، ثـــم رفعـــت هامتهـــا ببـــطء، تطالـــع الســـماء الحالكـــة، وترصـــد حركـــة النجـــوم المحتشـــدة بـــين الســـحب المتناطحـــة، حيـــث ســـقطت أول قطـــرة غيـــث في ليـــالي "كانـــون الأول" الحزينـــة.

هـــزت رأســـها بينمـــا تهمـــس لنفســـها، ثـــم تعـــالى صوتهـــا وقـــد اســـتدارت ممعنـــة النظـــر في عينـــي "فيكتـــور" المذعورتـــين:

- غدًا.. غدًا سيبدأ العد التنازلي لتبلغ ابنتك القمة.

لـــم تلبـــث الابتســـامة ترتســـم عـــلى وجهـــه حتـــى دنـــت منـــه فجـــأة وأردفـــت مشـــيرة بســـبابتها: "أمـــا هـــذا الوجـــه القفـــر المتـــواري خلفـــه النحـــس، فســـتحين لحظتـــه تباعًـــا مـــع كل خطـــوة نحوهـــا. غـــدًا ســـتصدح أنفـــاس المحزونـــين وتتـــوالى دمـــوع البائســـين. فـــإذا صـــدأت أحلام المدينـــة وأحرقت ســـفنها كافـــة، تخلـــت بهـــذا عـــن إيمـــان البســـطاء وخصـــال الشرفـــاء، ولـــن تُبنـــى أســـوارها مـــرة أخـــرى إلا عـــلى شـــهوات اللصـــوص المتعففـــة، التـــي لـــم ينقصهـــا ســـوى فرصـــة واحـــدة للظهـــور علانيـــة، ودنـــاءة النبـــلاء الذيـــن تعهـــدوا ســـابقًا بتعمـــير أحلام

البسطاء، بينما العهد والذمة منهم براء.. حينها فقط ستتحول عبرات الفقر إلى بحور من الدماء، ولن تكتب النجاة لهذا ولا ذاك.. فلتبق الأحلام يقظة.. للأبد".

للأبد..

للأبد..

تلاشى جسدها بينما ظل صوتها يتردد في آذان "فيكتور"، الذي لم يفهم كلمة واحدة مما ذكرته.. الشعور الوحيد الذي يداعب قلبه الآن، السعادة العارمة وإحساس بالفخر لإسهامه في تحقيق النبوءة، فلولا ما خطر بباله منذ دقائق لما ظهرت له العرافة.

وكعادته لم يتروَّ، ولم يمنح عقله المسلوب شرف التفكير.. غرق في تخيلاته ممتطيًا جواده الجامح.. رمح به إلى أقصى آفاقه حيث يقف بزهوٍ جالبًا السعادة لابنته، عاليَ الشأن، يحترمه الصغير قبل الكبير، ويقدره القاصي والداني، بل ربما أيضًا زلف إلى رجال الدين وطبقة النبلاء بعمله البطولي المقدم عليه. لمجرد التخيل هدأت نفسه، فأغمض أجفانه المجعدة سائلًا الرب أن يعاونه في مسعاه، محاولًا الاستغراق في النوم حتى تحين اللحظة الحاسمة، فساعات قليلة تفصله عن الصباح المشرق، وأيام الرغد والترف المنتظرة على أعتاب فقره وجوعه.

أو هكذا سولت له أوهامه!

***

صباح لم تُشرق شمسه

يـا لخيوط الشـمس الذهبيـة، أي قدرة منحها الـرب! تحجب ضوءهـا عنـا تـارة، وتحرقنـا بلهيبهـا تـارة أخـرى، أمـا هـذا الصباح فبدت شمسـه -عـلى غير العـادة- غائمة، حزينـة، ربما تتـوارى عمـدًا عـن نظـرات اللوم التـي سـتلحقها، لشـهادتها جرمًـا طالمـا قصـم نفوسًـا مترعـة باليـأس والانكسـار، وأعينًا غاصـت في محاجرهـا تترقـب موتهـا في صمت.

هـذا الصبـاح.. تمنـت "ماريـان" لـو أن قلبهـا لـم ينبض، ولـم تـرَ عينهـا النـور بعده.

صبـاح، تزاحـم فيـه العجائـز والنسـاء والأطفـال حتـى نشـبت بينهـم المعـارك والمشـاحنات، حيـث طغـت رغبتهـم لإشـباع فضولهـم عـلى إشـباع بطونهـم الفارغـة، والتـي تدفعهـم كل يـوم للمثـول أمـام المخبـز بالسـاعات حيـث عُلقـت لافتـة "لا يوجـد خبـز اليـوم".. هـذا الصبـاح لـم يعبأ الفقـراء باللافتـة ولم يحـاول أحدهـم تحطيـم رأس الخباز، إذ تصبغـت أرضيـة الزقـاق الهشـة وغـير المرصوفـة، بمخاوفهم ودمائهـم المحتشـدة في الـرؤوس، وذلـك عنـد رؤيتهـم رجلـين مـن المكتـب المقـدس يمتطيـان أحصنتهمـا، ويتشـحان بالسـواد، يشـقان طريقهمـا نحـو مخـزن "مسـيو رنجـير" دون الالتفـات للغمغمـات والهمسـات المترامية حولهمـا.

يحاول أحدهما تنبيه المارة من الاقتراب، بينما ترجل الآخر حاملًا في يده ورقة مطوية، وسرعان ما أصدر باب المخزن صريرًا خافتًا، ليظهر "فيكتور" بابتسامة ملء شدقيه، ومن خلفه اتسعت حدقتا "صوفيا" التي تساقطت الحبوب من كفيها، بينما تحاول إبعاد البقية في السلة الملقاة بجانبها، وهنا فطنت "ماريان" للفخ، فطفقت تلطخ فستانها الرمادي الباهت ببعض الطحين، وتنثر الحبوب حولها.

لمحها "الأب ليوني" الذي تخفّى بين الحشود بثوب بالٍ مرقع، مراقبًا في صمت، مأسورًا بجمالها ومفاتنها التي لم توارِها ملابسها الرثة: "تريد رفع التهمة عن صديقتها إذن! حسناء وفية. يا لك من رجل محظوظ يا فيكتور".

بهذه الجملة المقتضبة حدث نفسه، متيقنًا من خيانته عهود الرب وثقة المكتب المقدس المحارب لعملاء قوى الظلام، فهو يعلم جيدًا أنه لن يتوانى لحظة في استدعاء "ماريان"، فقط لو أنها قبيحة المظهر أو شمطاء، لكنها فاتنة، لوحة من الأساطير اليونانية نُحتت تفاصيلها بدقة وبراعة، وأمام الحسن وزوج من الأرداف، تتلاشى جميع الأفكار النبيلة. هكذا في لحظة باغت الواقفين جميعًا بالكشف عن هويته وأزاح غطاء وجهه، إذ انصب جل اهتمامه حول تبرئة "ماريان" من التهمة التي ستلصقها بنفسها أمام الملأ.

ضم يده حول فمه ثم صاح:

- لا جدوى من المراوغة يا "فيكتور" فحُراسي هنا لأجلك، هيا اخرج بهدوء واصطحب تلك اليهودية معك.. أما أنتِ يا "ماريان" فلا أعلم كيف يسعني شكرك، سيحفظ المكتب المقدس تضحيتك الجليلة حتى آخر العمر.

خرج ثلاثتهم منكسين رؤوسهم، دار كل منهم في فلكه وهوت عليهم الكلمات كسوط لا يرحم.. فالأول غلبته حماقته، والثانية لم تتخلص من صدمتها، أما الثالثة فلا تعلم كيف تواري نكبتها وفاجعتها، وثقتها التي أبت إلا أن تثبت عدم استحقاقية فيكتور لها.. تقدمت خطوة للأمام ثم انطلقت نفسها لمسرى أفكارها ليلًا، وما هيأته لها في هذا الموقف تحديدًا، فأبشع تخيلاتها أهون بكثير من الموقف الراهن، والمأزق الذي وضعها فيه ذلك اللئيم خسيس الطبع.

"ماريان خائنة".

"تلك الملعونة وشت بأبيها وصديقتها".

"ما المتوقع إذن من مشعوذة على صورة فتاة! فليلحقها العار ولتحل عليها لعنة الرب حتى آخر يوم في عمرها".

احتشدت الشتائم واللعنات في رأسها فأغلقت أذنيها بكلتا يديها، وأغمضت عينيها بينما تحاول استجماع رباطة جأشها، لتستل كلماتها أخيرًا من لسانها المنعقد:

- لست الفاعلة.. أبي فعلها.. لست الفاعلة يا صوفيا فلا تقتليني بهذه النظرات.

تقرب منها "الأب ليوني" هامسًا في أذنها:

- صدقيني لن يتحمل هذا الجلد الرقيق سلخَه كالشاة المنشقة عن القطيع، فإما الانصياع لأوامري أو التقلب بين صنوف من العذاب حتى آخر العمر.

ثم أشار للحارسين ليتقدما نحو "فيكتور" و"صوفيا" التي لا تزال في حالة جمود تام، ورفع صوته قاصدًا بذلك إلجام الجميع، خاصة أولئك العجائز اللاتي رغب في حشو أفواههن بروث الأبقار المتناثر حولهن:

- فلنُنْهِ الأمر، زُجا بهما في إحدى الزنازين، أما ماريان فسأصطحبها للإدلاء بشهادتها أولًا.

كبل الحارسان يديهما من الخلف، ثم سحل كل منهما المتهم الخانع تحت قبضته وربطه في قدم حصانه، بيد أن الحصانين لم يتحركا خطوة واحدة. طأطآ رأسيهما وتمردا وغرسا أقدامهما في الوحل عدة مرات، حتى إنهما لم يستسلما لضربهما بالعصا، فاستمر أحد الحراس بالصراخ والضرب حتى استوقفه "الأب ليوني" وتقدم نحوهما، ثم مسح على جسد الحصان الأول بحنان، وأخذ يهيئه ويستحثه على المضي، فسرعان ما رفع رأسه استعدادًا للانطلاق.. ثم كرر الأمر بالتبعية مع الحصان الآخر.

نظر للحارسين متباهيًا:

- لا تـــروض البهائـــم بالعصـــا. امنحهـــا أولًا قـــدرًا مـــن عطفـك واهتمامـك، ومـا إن تخضـع، اضرب بيـد مـن حديـد.

قالهـــا ثـــم صفـــع الحصـــان الأول عـــلى وجهـــه وأمـــر الحـــارس بشـــد لجامـــه، فارتعـــش ذيـــل الحصـــان الآخـــر -بحركـــة غريزيـــة- وشـــق طريقـــه مهـــرولًا نحـــو الســـجن، حتـــى اختفـــى عـــن الأنظـــار، واختفـــت معـــه ملامـــح "صوفيا" الناطقـــة بـــكل مخاوفهـــا، وآلامهـــا الملطخـــة بالوحـــل المندثـــر وجههـــا بـــين طياتـــه، أمـــا "فيكتـــور" فلـــم يعبـــأ بمـــا ســـيحل بـــه، أغلـــق عينيـــه مستســـلمًا، ربمـــا للراحـــة، أو العـــذاب الأبـــدي..

***

ثمة من يعريه الفقر، ينتزع إنسانيته، يشتت أحلامه قبل لمسها أرض الواقع، يبدد ويفتك بهويته، فلا يجد الخلاص سوى في تغليف عقله بالضلال، وإيهام روحه بموتها المحتم، فيطعن بالكلمات ويخون بالمعتقدات، متخذًا من أوهامه حجة.

حتى يُباغَت بشرّ منيّة "لا وصف لها في لغة الحياة".

***

المكتب المقدس لمحكمة التفتيش

جلس "الأب ليوني" متوسطًا إدارة التفتيش الحاضرة بإذنه -وهما رسولان مبعوثان من كاتدرائية نوتردام- واضعًا غطاء رأسه الأسود المواري دمامة وجهه، وقد لاحت على ثغره ابتسامة شيطانية أظهرت تجاعيده الخمسينية، والتي تجلت بالتبعية حول عينيه السوداوين الضيقتين. وبفم عريض ممتلئ نطق أولى كلماته:

- باسم الأب والابن والروح القدس.

ثم وقف ملوحًا بيده قبل أن يمدها باتجاه "صوفيا" الجالسة، فنهضت تقبلها بجسد واهن وشفاه مرتعشة، بعكس "فيكتور" الذي كاد يلتهم أصابعه تعبيرًا عن قدسيته واحترامه.. جلس مرة أخرى مشيرًا إليهما ليتخذا مقعديهما.. وضع بعض الأوراق فوق المنضدة العريضة، وبالتفافة هادئة نحو "الكاتب" الجالس بجانب الباب الموصد، استكمل حديثه، فبدأ الآخر في تدوين ما يقال، مستعينًا بضوء الشمعة التي بالكاد أنارت الغرفة الضيقة المظلمة، مضفية مزيدًا من الأجواء الخانقة المثيرة للأعصاب:

- صوفيا رافاييل.. أليس هذا اسمك؟

- بلى.

- لدينا بعض الأسئلة، وآمل أن تجيبي بصدق. تذكري جيدًا "المراوغة لن تجدي نفعًا".

نهض فجأة، ثم سار نحوها بخطوات بطيئة، فتراجعت قليلًا بقدر ما سمحت لها أمتار الغرفة المحدودة، وطالعته بعينين زائغتين خالط الدم بياضهما.. ضم كفيه وأسندهما إلى ذقنه قبل أن يتمتم ببضع كلمات، ثم وجه سبابته فوق المنضدة، وبصوت حمل الكثير من جنون العظمة والخيلاء، أمرها بالقسم على الصليب المقدس بأنها لن تقول سوى الحقيقة، فوضعت كفها على الصليب وأقسمت بصوت يواري رجفته:

- أقسم بجروح المسيح المقدسة ألا أقول سوى الحقيقة.

- والآن، اهدئي تمامًا.

عاد إلى مقعده مرة أخرى، قاصدًا بذلك مماطلتها وتحطيم أعصابها، حتى إذا ما باغتها بالسؤال تأكد من عدم قدرتها على التدليس واختلاق الأكاذيب.. داعب ذقنه العريض مطلقًا ضحكة عالية ثم رفع بصره للسقف:

- الخنزير.. يا له من حيوان أليف.. مذاقه لذيذ.. سهل التربية.. يحب الأطفال ويحبونه، حتى إذا ما رأوه في إحدى المزارع يتهافتون للتقرب منه واللعب مع صغاره.. أتعلمين يا صوفيا؟ ليس كل ما يدخل جوفنا نجسًا، بل ما يخرج منا "هكذا قال يسوع".

نظر إلى الكاتب معقبًا باستهزاء:

- ثم يأتي أحد المهرطقين يا "أندريه" ويحرم أكله بحجة أنه غير صالح للأكل.. نعم نعم فهو يتناول المخلفات.. أليس كذلك يا "صوفيا"؟

رمقته "صوفيا" بعدم فهم ثم فتحت فمها ببلاهة:

- هل تريدني أن أجيب حقًّا؟

- بالطبع. في الحقيقة أود معرفة رأيك في ما يخص هذا الأمر، باعتبارك يهودية لا تأكلين لحم الخنزير.

- يهودية!

- رباه! أعتذر، يبدو أن الأمور اختلطت لدي. ذكريني إذن بديانتك يا ابنة رافاييل.

تلفتت حولها وتلعثمت عدة مرات، ثم قالت بعد برهة:

- مسيحية، كاثوليكية.

طرق بسبابته فوق المنضدة 3 مرات:

- أكرر طلبي للمرة الثانية، ذكريني بديانتك يا ابنة رافاييل.

- مسيحية. أقسمت ألا أقول سوى الحقيقة، وها هي الحقيقة.

- لكن المعلومات لدي تقول إنك رفضت أكل لحم الخنزير، وهذا لا يقودنا إلا لنتيجة واحدة، تمامًا مثلما قيل لي، تمارسين سرًّا شعائر أسلافك اليهود.

همت بالكلام فأسكتها محتدًّا:

- بعد الاستقصاء والبحث أخبرني موظفو الأرشيف أنك ابنة السيدة "أدلين سيمون"، المنحدر نسبها من أصول يهودية، لذا لا عجب في كرهك لحم الخنزير وقد تربيت على يد هذه المرأة.

ارتعش جسدها الهزيل وحاولت تحريك يديها بصعوبة بالغة، إذ شعرت بتفكك مفاصلها إثر تقييدها وسحلها مدة طويلة:

- لا لا، أنا فقط لا أستسيغ مذاقه، ثم إن أمي مسيحية، وما قيل بهذا الشأن مجرد شائعات. أتوسل إليك، صدقني، أقسم باسم الصليب إنني أقول الحقيقة.

- شش لا تقسمي بصليبنا المقدس مرة أخرى.

توجه صوب الباب ثم خرج، وبعد أقل من دقيقة دلف مرة أخرى، حاملًا في يده بعض الكتب.. رمى بالكتاب الأول أمامها، متسائلًا:

- بافتراض أنك لا تقولين سوى الحقيقة، ماذا عن هذا أيضًا؟

تعلقت عيناها الدامعتان بوجهه:

- ما هذا؟

- أمعنِي النظر، إنه "عشاء الرماد" أحد الكتب المدرجة ضمن قائمة "الكتب المحرمة"، والتي حُرمت طباعتها أو قراءتها بأمر من الكنيسة، وغيرها من الكتب الأخرى وجدناها في غرفتك. والآن بم تفسرين وجود هذه المخطوطات الداعية للفكر والتنوير، المروجة للمبادئ السوداء المسممة لأرواح من يخافون الرب، والمعادية لتعاليم الدين؟ الأمر الثاني، من ساقك إلى الكتب ومن أين أتيت بها؟ من المفترض أن جميع النُّسخ حرقت منذ زمن، والبقية مُنع تداولها وإدخالها إلى باريس.

- ولكن..

استحثها على الكلام فالتقطت أنفاسها بصعوبة، وحدقت في اللاشيء، حتى بدت كمن يفيق من الثمالة عقب سكرة أحلامه الوردية، ثم استعادت وعيها لثانية وصاحت بما تبقى من طاقتها شبه المنعدمة:

- كذب.. هذه الكتب ليست لي فأنا لا أجيد القراءة من الأساس، وبالكاد علمتني إحدى صديقاتي حروف اسمي، حتى أتمكن من نقشه إن اضطرني الأمر.

تبادل الرسولان نظرات التعجب، فسرعان ما استلم "الأب ليوني" دفة الحديث مرة أخرى:

- لا تصدقا هذا الهراء. عندما تُطوق الفريسة وترى حياتها على المحك، لا يوجد أسهل من اختلاق الحجج والأكاذيب.

وضعت "صوفيا" يدها على بطنها، كأنها تذكرت للتو تلك النطفة في أحشائها، وما تحمله على عاتقها من مسؤولية حمايتها، وهنا اشتد عودها قليلًا فتحاملت على نفسها ومالت للأمام، لتتحدث بنبرة تحمل بعض الصرامة، رغم وهنها:

- ليست أكاذيب، فالجميع يعلم أنني لا أكتب ولا أقرأ. ومن أين لي بشراء كتب كهذه وأنا التي أبيت الليل أناشد الرب ليغدق عليّ بكسرة خبز في الصباح! بينما أسمع أنين أمي المريضة، طريحة الفراش منذ وفاة أبي. لو أنك فتشت غرفتي يا سيدي، لعلمت أنني أعيش عيشة البهائم في الحظيرة، بين القش الخشن وروث مواشي أحد الأثرياء، التي قاسمناها معيشتها، لكن ثمة فرقًا كبيرًا بيننا، فهي تأكل وتشرب على حساب صاحبها، أما نحن...

سكتت فجأة وران الصمت، إذ أبصرت الشر في عينيه، لكنه خالف توقعها ودنا منها متبسمًا، ثم مد يده بحنو، فتشبثت به -لا إراديًّا- كغريق باحث عن طوق نجاة، غير متيقن من وصوله إلى بر الأمان.

- ما رأيك إذا أعطيتك فرصة لإثبات أقوالك؟

أجابت فرحة:

- سأكون شاكرة جدًّا. ولكن، كيف؟

- ستعرفين الآن.

نادى الحارس وطلب منها الخروج برفقته، ثم همس في أذن الرسولين وأمرهما باللحاق بهما، لحين انتهاء التحقيق. بمجرد اختفائهما عن الأنظار وجه بصره صوب "فيكتور"، المراقب لما يدور من حوله في صمت تام.

اقترب منه ومسح على رأسه:

- العزيز "فيكتور"، يا لك من أحجية كبيرة لم أستطع حلها منذ الصباح، لم يخيل لي أبدًا أن بلدتنا بها رجال أوفياء مثلك. تبلغ عن صديقة ابنتك وأنت تعلم أنها ستكون بجوارها، وربما تتلبسها التهمة أيضًا، أي محبة للوطن تتمتع بها! وأي إرادة تتملكها للإقدام على فعل كهذا؟

أعلم أن الكثير من الأسئلة تدور في ذهنك، على سبيل المثال، لماذا أقحمتُ ابنتك في الأمر وأظهرتها بمظهر الخائنة! ولماذا لم ينته الأمر بالقبض على صوفيا ومحاكمتها، ثم تتسلم أنت مكافأتك لإبلاغك عنها.. نهاية سعيدة جدًّا يا "فيكتور"، توافق أحلامك البسيطة، نعم نعم أتفق.

عقد ذراعيه خلف ظهره ثم تقدم بضع خطوات للأمام:

- قبل أي شيء، أنت تعلم أن فعلي هذا لصالحك، أليس كذ لك ؟

اكتفى "فيكتور" بإيماءة طفيفة، إذ لم يسمح له مشيبه وضعف جسده بالصمود أكثر من ذلك. تبسم الأب ليوني: "عظيم". وفي اللحظة ذاتها دوى صراخ "صوفيا" المذيب لنياط القلب، كاسرًا الصمت المخيم على الأرجاء، والذي يمكّنك من سماع الهمسات، حتى دبيب النمل في جحره الأصم، فاتسعت ابتسامته مسترسلًا:

- لو علمت أهميتك يا فيكتور لعذرتني، والتي لا تقل أهمية عن أي نبيل مخلص متفانٍ في عمله، فوجود الأوفياء أمثالك يشعرنا دومًا أن الوطن بخير، بين أرواح أمينة، تدك براثن الأشرار والعملاء قبل أن تقوم لهم قائمة، وتشتت الميليشيات الخائنة، أولئك المطالبين بتقسيم الضرائب وحرية الوصول لجميع المناصب العسكرية والمدنية، حتى الكنيسة!

وجودك في الخارج لا يهمنا بقدر ما يهمنا حقًّا حضورك وسط هؤلاء الشرذمة، المتمردين القابعين في السجون، فهذا يطمئننا كثيرًا، أكثر مما تتخيل.

- كيف؟

قالهـا "فيكتـور" بصـوت تكبـد العنـاء لمغـادرة حلقـه الجـاف، وقـد تدلـت أجفانـه وزاغ بـصره، وسرى الرعـب في أوصالـه بعـد سـماعه صرخـات "صوفيـا"، فأجابـه "الأب ليونـي" ضاحـكًا:

- رغـم أنـك لا تملـك حـق السـؤال، فإننـي سـأجيبك. أعنـي أنـك سـتصبح أعيننـا السـاهرة، وآذاننـا المصغيـة في الزنازيـن، مرآتنـا لمـا يـدور في خلدهـم، ومـا يتحدثـون عنـه أو يخططـون لـه، تقـرأ أفكارهـم، وتـدوّن كل مـا تسـمعه وتـراه.

ثم أشار نحو رأسه معقبًا:

- هنا في عقلك.

بالطبـع هـذا لا يعنـي أننـا لا نعلـم رؤوس الإفسـاد، ومشـعلي أوار الفتـن، ونحكـم عـلى البـلاد والرعيـة قبضتنـا، فالتطهـير غايتنـا الأولى، وقـد رأيـتَ ذلـك بـأم عينيـك، لكـن الحـذر.. الحـذر يشـعرني براحـة مفرطـة، وأن زمـام الأمـور بـين إصبعـي هاتـين. والآن، عزيـزي فيكتـور، هـلا أقسـمت عـلى الصليـب المقـدس ألّا تقـول سـوى الحقيقـة؟

أجابـه الهلـع المحتشـد في عينـي "فيكتـور"، فأشـار إلى الكاتـب ليـدون اعترافـه:

- أقسـم بجـروح المسـيح المقدسـة ألا أقـول سـوى الحقيقـة.

- السيد "فيكتور بيترون" هل تعترف بأنك توجهت لسرقة الحبوب والطحين من مخزن "مسيو رنجير" المخصص لتلبية احتياجات النبلاء والقساوسة، بصحبة اليهودية "صوفيا رافاييل"؟ والتي تقر بأفعالها الآن في الغرفة المجاورة.

- نعم.

- هل تعترف أيضًا بأنك رأيت صوفيا تشمئز من رائحة لحم الخنزير وترفض أكله؟ بالإضافة إلى رؤيتها تقرأ بعض الكتب المحرمة؟

- نعم.

- هل "ماريان" ابنتك على علم بهذه الأمور؟ هل حاولَت التستر عليكما؟

- لا.

- إذن ما سبب وجودها في المخزن بجوارك؟

- كـ كانت.. تحاول فقط.

- دعني أجب نيابة عنك.

نظر بطرف عينه نحو الكاتب، متابعًا:

- كانت تتأكد من وجودكما في المخزن قبيل قدومنا، إذ جاءت إلى المكتب المقدس صباح اليوم وأخبرتني عن الاتفاق الذي سمعته صدفة، بينك وبين "صوفيا".

ران الصمت لحظات، قطعته صرخات "صوفيا" ثانية، لكنها بدت هذه المرة وكأنها تخرج من قلب الجحيم، فأي هول تقاسيه تلك المسكينة! وأي عذاب يحيط بها الآن!

اقترب "الأب ليوني" من "فيكتور" حتى استشعر أنفاسه اللاهثة، ثم أخفض صوته، وبصيغة توحي بالعرض والطلب لكنها تحمل في طياتها أمرًا واجب التنفيذ، قال:

- ماريان. ما رأيك أن تتخذ من مسكني مأمنًا لها؟ حتى تهدأ ألسنة العجائز وينسى الجميع الأمر برمته، فهي في نظرهم الآن مجرد خائنة، ملعونة ومنبوذة. أما برفقتي، فستعرف معنى الرغد، وتعيش في ترف لم تره طوال حياتها. وبالمناسبة، هي في منزلي الآن.

تبدلت حال "فيكتور" على الفور وتهلل وجهه -متناسيًا وضعه الحالي- بينما يتمتم: "نبوءة العرافة، إنها نبوءة لوتورمان، لقد تحققت". فتجهم وجه الآخر وقبض عنقه حتى جحظت عيناه:

- تقول "لوتورمان"؟ العرافة التي أحرقناها منذ عشرين عامًا!

***

"مـن نـسي خطيئتـه اسـتعظم خطيئـة غـيره.. ومـن لـم يكـن لـه ذنـب، فليرمنـي بالحطـب الآن".

مـا زالـت تلـك الجملـة تـتردد في أذنـي.. أسـمعها ولا أعـرف قائلهـا.. تـدوي صرخـات المـوت وتطغـى عـلى أنفـي رائحـة اللحـم النتـن المتعفـن.. الدخـان الأسـود يتكاثـف أمام عينـي الآن، ينتـشر في سـماء المدينـة حتـى أصـاب البعـض بالغثيـان، والبعـض الآخـر بأمـراض مزمنـة، فكميـة الدخـان لا يتحملهـا بـشر.. وهنـا أقـول "أمـام عينـي" بافـتراض أننـي أرى بالفعـل، إذ لا يسـعني حتـى رؤيـة أصابعـي التـي أحـاول جاهـدًا مدّهـا نحـو الفـراغ الحالـك، لتتلمـس طريقهـا نحـو شيء لا تبلغـه.. لكننـي ورغـم ذلـك، أسـمع وأرى كل شيء!

هـذا الكائـن الهلامـي بمظهـره المقـزز، أشـعر أنـه لا يـزال يرمقنـي.. أعـاود السـؤال عـشرات المـرات خـلال اليـوم الواحـد "أيـن أنـا؟"، "مـاذا تريـد؟"، حسـنًا، لا تجبنـي، لكـن بربـك أخبرنـي "هـل أنـا حـي"؟

"السـكون" لا أستشـعر سـواه هنـا، بـين أفـكاري وذكرياتـي، التـي لا أعلـم حقًّـا أهـي ذكريـات مـن المـاضي؟ أم تنبـؤات مـن المسـتقبل!

أنـا مشـوش، بالـكاد أتنفـس، تطوقنـي شـخصيات وأزمنة وأماكـن عـدة، ذاكرتـي مترعـة بالكثير مـن المواقـف والأحداث والأصـوات، رأسي ثقيـل، أثقـل مـن أن أحملـه، والنـوم هـو

مـــلاذي الوحيـــد للهـــروب، إلا أنـــه صعـــب المنـــال، فمـــا إن أغمضـــت عينـــي حتـــى ســـقطت في بـــئر ســـحيقة، تلتهـــم جســـدي، لا أعلـــم قرارهـــا ولا حتـــى ســـبيلًا للنجـــاة منهـــا.. القلـــق يمزقنـــي بمخالـــب كالســـيف، ونســـختي الحاليـــة باهتـــة، قاتمـــة، لـــم أعـــد أعـــرف نفـــسي حقًّـــا، فهـــلا أجبتنـــي يـــا هـــذا؟!

***

المحاكمة الثانية

مساء اليوم التالي

"في حانة دانتون"

عـلى خشـبة المـسرح الصغـير حلقـت فاتنـة برقصتهـا، تـدب بقدميهـا العاريتـين، وتتمايـل في تناغـم مـع معزوفـة تـأسر القلـوب وتحطمهـا دون رحمـة، تتسـلل أصابعهـا خفية لتثنـي طـرف فسـتانها الأحمـر الداكـن، ثـم ترفعـه برشـاقة ليشـع نـور سـاقيها الممشـوقتين، فتحملـق أعـين الثمـالى بهـا، سـالبة لبّهـم وعقولهـم. وحـده "جـاك الرسـام" -كمـا اعتـاد الجميـع مناداتـه- لا يحملـق بهـا، بـل لا يلتفـت لهـا مـن الأسـاس، فقـد انهمـك بـين أوراقـه المتكومـة والكـؤوس المتراصـة أمامـه، مسـتجديًا قريحتـه ليـدون آخـر قصائـده عقـب عـدة محـاولات فاشـلة:

أرى أحلك الليالي تنجلي

ومن ضيائك حتمًا سأرتوي

لطالما كتبت "أحبك"

وبات حسنك رفيقي

حتى "اسمك" لم يفارق فمي

حبيبتي

حطّمي قيودك الآن

ومن نهر عشقي انهلي

فأنا من تجرع الحب بإرادته

واستقيتُ على أطلاله نخب ذلي

وآهاتي ودمي..

أعاد قراءة الكلمات مرة تلو الأخرى، بينما يطيل النظر إلى وجه "صوفيا" الذي قضى ليلته عاكفًا على رسم تفاصيله، يناجي روحه المعذبة في هواها بعدما ازداد شعوره بالذنب، فبات يحمله على عاتقه كحدب سيلازمه طوال العمر، خاصة عقب سماعه الأخبار التي انتشرت بسرعة البرق، والتهم الموجهة إليها، مدركًا بذلك أن اسمها سيندثر من الوجود، بل ستصبح نسيًا منسيًّا في صحيفة مكتظة بأسماء طواها الزمن ولن يذكرها سوى أصحابها فقط، فلم يسبق لأحد القابعين في السجون أن خرج منها حيًّا، أو متهم دخل بقدميه "المكتب المقدس" ورأى النور بعده.

ينتحب قلب "جاك" حاجبًا عنه الضوضاء المحيطة، فيغمض عينيه محاولًا ترك جسده يهوي في اللذات، ولكن دون جدوى.. وحده وجه "صوفيا" يراه في كل الوجوه ويبصره في يقظته ومنامه.. يتفكر في خسته ونذالته، فأي جبن تمكن منه ليرتكب فعلته الدنيئة! وأي أفكار مراهقة سيطرت على عقله الحكيم ليظن -عبثًا- أن مضاجعتها عنوة، ستجعلها ملك يمينه للأبد!

يتذكـر آهاتهـا وأضلعهـا المتهشـمة تحـت جسـده المفتول.. اسـتغاثتها بالـرب والسـماء، حتـى الصخـرة بجانبهـا، الشـاهدة عـلى جرمـه.. عقـدة شـعرها الذهبـي المجـدول، وكيـف حُلـت سـالبة معهـا براءتهـا وطهرهـا، فغـدت كزهرة صبـار كـسرت شـوكتها، ترتجـي مـن تتـوكأ عليـه في ليلهـا المقفـر ويـداوي قهرهـا الممتـد مـن الأرض إلى السـماء.

دقائـق مـن الذكريـات المضنيـة مـرت كالدهـر، ظـل يتقلب عـلى إثرهـا كالخنزير الـذي تطهـوه الآن تلـك البدينـة، لتقدمه كطبـق رئيـس للجيـاع الملتفـين حـول الطاولـة، وهـو الطبـق المقـدم مجانًا من "السـيد دانتـون" صاحب الحانـة، بأمر سرّي مـن المكتب المقـدس، إذ ينثـرون عملاءهـم في الأرجـاء، يترقبون هفـوات الثمـالى وأفعالهـم العفويـة، حتـى إذا ما لاحظـوا فعلًا مريبًـا (مثل أن يرفـض البعض تذوق لحم الخنزيـر، أو يتحدث أحدهـم عـن المعبـد عوضًا عـن الكنيسـة، فهـو إما يهـودي أو بروتسـتانتي) وفي هـذه الحالة يدونون اسـمه على الفـور.. وهنا تداعـى إلى ذهـن "جاك" مشـهد آخـر ذكـره بصوفيـا، إذ رآها أول مـرة في الحانـة مـع حبيبها "ماكسـيميليان"، والـذي التهم لحـم الخنزيـر بشراهـة، بينمـا رفضـت هي مجـرد النظـر إليه وقـد أصيبـت بالغثيان مـن رائحته.

لـم يتحمـل الذكريـات المنهالـة عـلى رأسـه دفعـة واحـدة، فوقـف عـلى الطاولـة وبعثـر أوراقـه غـير عابـئ بمـن يلتقطهـا، وراح يصيـح بأعـلى صوتـه:

- لأنها لا تستسيغ لحم هذا الحيوان المقزز، يتهمونها بالخيانة ؟

لأنها تمقت رائحته النتنة، يلصقون بها تهمة الزندقة ونشر الفكر الشيطاني؟ وهي التي بالكاد تقضي يومها تبحث عن قوتها؟! لأنها اختلست بعض الطحين من مخزن النبلاء أصبحت سارقة؟ لقد استكثروا حريتها عليها وخططوا ودبروا لها سجنًا عنصريًّا مظلمًا، يريدونها أن تمرغ أنفها في طين العبودية، فإما أن تسير وفقًا لأهوائهم مرتضية الذل والجوع والهوان، أو تعيش مكبلة بسلاسل من نار، ما بقي من حياتها.. أما أنا فلن أرتضي ولن أكون عبدًا لأحد بعد الآن، حتى ذلك المتعجرف "الأب ليوني". فأي ديانة تأمر بالتعذيب والتنكيل لمجرد اختلاف الفكر؟ وأي مصائر أطلقتها أيدي العابثين دون إذن أو سلطان، ليبرروا تعسفهم وقسوتهم وأحكامهم الجائرة!

هيا انظروا إليّ، هل سندع الطغيان يتغلب على إرادتنا؟ هل سنسمح لقوة رجل واحد أن تمحو أملنا في رؤيتنا أحرارًا؟

ثم نظر إلى أحد العجائز الجالسين، والذي تدلى رضابه من فمه المرتعش:

- هل أنت سعيد بهذه الحياة؟ لا تملك سوى ثوب شتوي واحد وربما آخر صيفي.. يركلونك بلا سبب

عنـد انتهـاء حاجتهـم منـك صباحًـا، عقـب عمـل شـاق لا ترتضيـه حتـى البهائـم، فتأتـي إلى هنـا ليـلًا تسـتجدي رأفـة أحدهـم ليغـدق عليـك بوجبـة، تسـكت بهـا جوفـك الخـاوي وإنسـانيتك المطموسـة منـذ زمـن.

عـاد ينقـل بـصره مـرة أخـرى بـين النسـاء شـبه العاريـات، مشـمئزًا مـن مظهرهـن واسـتغلال أجسـادهن للتكسـب، فرغـم وجـوده بينهـن كل ليلـة، فإنـه لـم يرهـن بهـذا القبـح الـذي يـراه الآن.. "صوفيـا" الطاهـرة تحـت بطـش أعتـى المفتشـين، يتلاعبـون بجسـدها كدميـة ويفرغون فيهـا سـاديتهم، وهـؤلاء يمارسـن الرذائـل والبغـاء في الأزقـة والطرقـات عـلى مـرأى ومسـمع مـن الجميـع:

"أهـذا عـدل يـا اللـه؟"، "هـذا مـا تسـميه الكنيسـة مسـاواة بـين طبقـات الشـعب الكادحـة والنبـلاء ورجـال الديـن؟".. رفـع صوتـه أكثـر وصرخ مفجـرًا بركانـه الخامل: "أي ضريبـة ندفعهـا نحـن جـراء الصمـت والخنـوع! هيـا فلنقلهـا الآن، رددوا معـي، لا للمزيـد مـن الامتيـازات بعـد اليـوم، لا للمزيـد مـن الـذل، فأرضهـم خاليـة مـن الحيـاة دوننـا، بينمـا أرضنـا لا تـزال قـادرة عـلى النبـض مـن جديـد، قـادرة عـلى الرفـض والشـجب والاعـتراض، والنطـق إذا أرادت".

أجابـه الصمـت وخيـم السـكون عـلى الوجـوه التـي بـدت في عالـم آخـر بالفعـل، فأحدهـم يتنـاول حصتـه مـن

الطعـام بنهـم، والآخـر انـزوى في ركـن قـصي، تتحـرك كرتـا عينيـه داخـل محجريهمـا ببـطء، كأنمـا يـرى شـيئًا لا يـراه سـواه، وهنـا شـمطاء تتلمـس جسـدها لغوايـة أحدهـم، بينما انكمشـت تلـك الفتـاة بـين ذراعي ذلـك الوغـد المُشـعر بهيئته المزريـة، حتـى عافتـه نفـوس النسـاء جميعًـا، باسـتثناء مـن قذفتهـا الظـروف بـين فكـي الفقـر والحاجـة، فلـم تجـد منـاص مـن تحمـل وجهـه الأشـبه بغـول أسـود، ورائحتـه النتنـة التـي تذكرهـا بمكـب نفايـات اختلـط فيـه روث المـواشي بأكـوام مـن القمامـة..

وبالقـرب مـن رجـل يلفـظ لحظـات انتشـائه الأخـيرة، كما لفظهـا عـشرات قبلـه بـلا ترياق، وقعـت عينـاه فجـأة عـلى رجلـين لـم يلحظهمـا منـذ ولوجـه الحانـة، يرتديـان شـعرًا أبيـض مسـتعارًا، وزيًّـا أسـود ذكـره بذلـك الـذي يرتديـه القضـاة، يمسـك أحدهمـا مذكـرة صغـيرة وقلمـا يـدون بـه كل مـا يقـال، بينمـا يتفحـص الآخـر صـورة "صوفيـا" التـي التقطهـا بـين الأوراق المتناثـرة عـلى الأرض، فلـم يهتـم "جـاك" بـذاك الـذي يـدون، بـل أثـار حنقـه الوقـح المسـك بصـورة حبيبتـه، فهـرع وانقـض عليـه دون تفكـير، ليفاجـأ بالآخـر يقبـض عـلى عضـده:

- السـيد جـاك، سـيصلك اسـتدعاء مـن المكتـب المقـدس صبـاح الغـد. حينهـا أرجـو أن تتحـلى بشـجاعتك التـي أبصرهـا في عينيـك الآن.

قالهـا بصـوت أجـش ثـم تركـه ورحـلا في صمـت، دون الالتفـات إليـه أو حتـى معرفـة رده، إذ يعرفـان كمـا يعـرف هـو جيـدًا أنـه لـن يجـرؤ عـلى الإقـدام عـلى أي فعـل، سـوى المكـوث في منزلـه يصـارع أفـكاره منتظرًا مـرور السـويعات، مترقبًـا مصـيره.. سـتغفو عينـاه لحظـة لكنـه سيسـتيقظ فزعًـا ينقـل بـصره بـين الجـدران المتهالكـة، خشـية قـدوم أحدهـم، ثـم ينتهـي بـه المطـاف منكبًّـا عـلى وجهـه، ينتظـر بصيصًـا مـن إشراقـة الشـمس يتبـدى خلـف نافذتـه، ومعـه اثنـان يحمـلان رسـالة اسـتدعاء لاسـتجوابه.

***

نعم ستبوء جميع محاولات "جاك" بالفشل تمامًا كما أخفقت "ماريان" في التملص من ذلك القلب البهيمي، الجالس بجوارها طوال الليل يتعبد في محراب جمالها، يطلق خياله ويمر بآمال الشباب الفانية، فهو -على قوته- أضعف الرجال أمامها، وعلى غناه أفقر المفلسين بين يديها.. الأب ليوني ذو البطش والقوة، والجاه والسلطة، القاتل الذي لا يرحم ولم يرقّ قلبه قط، حتى بعد اغتصابه العذراوات في غرف التعذيب، وإعدام الآلاف في ساحة المحاكمات، إذ لم يسلم من بطشه كهل أو يافع ولا حتى رضيع، أما النساء فله معهن باع طويل وثأر لن تمحوه السنين..

وحدها "ماريان" أفقدته صلابته وأذاقته سراب السعادة، فلا هي أحبته مقدار ذرة، ولا هو طال منها مبتغاه، حتى بات يسأل نفسه عما دهاه بين ليلة وضحاها! لقد ظن أن الأمر لم يتعد مجرد شهوة اندلعت برؤيتها، لكنه ولأول مرة يتحسس وجهه الدميم، وقد ظهرت أمارات الحب على محيّاه.. متى وكيف أصابه ذلك المرض اللعين! وهو الذي تخطى الخمسين ولم تستر جدرانه زوجة، ولا أشرقت شمسه بضحكة طفل صغير، يذيب عقله بسماع أول كلمة ينطلق بها لسانه.

كيف عقد بالأمس اتفاقية مع الشيطان وقضى ليلته معذبًا صوفيا وفيكتور، واليوم يتعذب هو،

مفتونًا بحسن ماريان! متمنيًا قبلة واحدة من شفتيها الحمراوين، غير أنه لا يقوى على انتزاعها منها عنوة.. والآن هو في ورطة حقيقية، فقد استعطفته الفتاة بما تقاسيه في غياب أبيها وصديقتها، وسألته باسم الرب أن يمنحها زيارتهما، والحق أنه كاد ينصاع لأمرها، لكنه لوهلة تنبه إلى مدى اشمئزازها من مظهره، وأنها تستجدي إنسانيته دون حتى النظر إلى ظله، فأي قبح غلف ملامحه لتتوارى عيناها وتغض طرفها عنه! وأي إنسانية تتحدث عنها وهي كارهة طلته، دون أدنى مراعاة لمشاعره!

هكذا صفعها صفعة أفقدتها توازنها، فارتمت تحت قدميه باكية.. تبًّا لدمعاتها الأرق من نسمة صيف، وحزنها الأشبه بسكين نقر على أوتار قلبه.. قلبه الذي تلذذ بآهات المكلومين وعبرات المشردين، لم يُطق دمعة واحدة تمر عبر وجنتيها.. تلك الفلاحة الساذجة التي نبتت في الطين، أصبحت زهرة يانعة ولا بد من وضعها في إناء ثمين "ولكن، هل مجرد وضعها في هذا الإناء سيضمن لها البقاء؟ فكم من زهرة مرعية جفت حتى تمنت لو بقيت جذورها مهملة في الطين".

ذكرته هذه الأفكار بعرافة البلدة "لوتورمان"، لقد أخبرته -تحت التعذيب- منذ ما يقرب من 20 عامًا، أنه لن يفر من مصيره، وسيتيه في دنياه باحثًا عن الحب،

ومـا إن يجـده حتـى يحرم عـلى قلبـه إلى الأبـد.. وفي الوقت ذاته عصفـت الأعاصـير بذهنـه، فكيـف يصـدق نبـوءة لوتورمـان؟ الهادمـة لثوابـت العقيـدة والكنيسـة، المدعيّـة، المسـتبصرة بالأباطيـل، المؤمنـة بعلـم الفلـك والنجـوم ورسـائل الفلسـفة والتنويـر، عـلى يـد عميـل قـوى الظـلام المدعـو "فولتـير".

كيـف يصـدق مـن مارسـت السـحر الأسـود، بـل ربمـا ضاجعـت الشـيطان وأنجبـت منـه أيضًـا، فـأي نسـل خلفتـه تلـك السـاحرة! وكيـف ينسـاق وراء خرافـات لا يصدقهـا العقـل، وتكهنـات عـلى لسـان امـرأة لـم يعـرف عنهـا مـن نسـاء "باريـس" سـوى جلـب الفقـر والنحـس وإلحـاق الخطايـا بـكل مـن عرفهـا أو تقـرب منهـا، وهـو مـا أكـده عمـلاء المكتـب المقـدس، وحكايـات الزوجـات القدامـى وشـائعاتهن، وشـهادات بعـض الرجـال الموثـوق فيهـم والذيـن أقسـموا قبـل النطـق بهـا، حتـى عقـدت المحاكمـة وأُحرقـت، ومـا يقـرب مـن 200 سـاحرة عـلى شـاكلتها.

لكـن الأهـم مـن ذلـك، مـاذا لـو أنهـا لـم تحـترق وظهرت بالفعـل لذلـك الأخـرق "فيكتـور"! ومـا أدراه بأنها لـم تخبره شـيئًا عـن المـاضي، ولمـاذا لـم يـذَع لهـا خـبر إلا مـن خلاله؟!

ثمة سر يخفيه "فيكتور" وبالتأكيد سيعرفه..

راح يجـوب الغرفـة والقلـق يتملكـه، ثـم رفـع رأس "ماريـان" متحاشـيًا النظـر إلى عينيهـا، وسـألها بحـزم لا يـدع لهـا سـبيلًا للمراوغـة:

- هـل سـمعت عـن عرافـة اسـمها "لوتورمـان"؟ هـل جـاءت لزيارتكمـا مـن قبـل؟

- لا. لـم يسـبق لي معرفتها أو حتى سـماع اسـمها.. أقسـم.

- وماذا عن أبيك؟

- لـم يخبرنـي مـن قبـل عـن هـذا الاسـم، ولـم أره يتحدث في الحانـة سـوى مـع رفقائـه، فأبـي لـم يتحـدث إلى امـرأة قـط بعـد وفـاة أمـي.

- رجـلٌ وفيّ، لكـن حظـه العاثـر قـاده إليّ، ولـن يخلصـه الليلـة سـوى الاعـتراف بالحقيقـة كاملـة، وإلا فمصـيره لـن يختلـف كثـيرًا عـن مصـير "صوفيـا".

تهـاوى قـراره إلى لجـة عينيهـا، فاتسـعتا خوفًـا وذعـرًا وصرخـت:

- ماذا تقول؟

تراجعت برهة ثم قالت منكسرة:

- أعنـي.. مـاذا سـتفعل بأبـي؟ دعنـي أولًا أتحـدث إليـه، أتوسـل إليـك، وأتعهـد إليـك بإخبـارك عمـا ستسـفر عنـه محادثتنـا، مهمـا قيـل لي.

تبسَّـم فضاقـت عينـاه الماكرتـان أكثـر، وظهـرت أسـنانه الصفـراء في بشرتـه الخمريـة، ثـم تشـاغل بإشـعال المدفـأة بينمـا ينفـث يديـه بعـدم اكـتراث:

- سآمرهم بإعداد عشاء فاخر. ستتذوقين لأول مرة لحم خنزير طازج، وليس كلحوم الخنازير والكلاب الميتة في المتاجر والحانات.. ستتناولين العشاء برفقتي، ثم نتشاور في الأمر، وهو شرف -لو تعلمين- عظيم.

هزت رأسها دون تفكير، فالتهمها بنظراته ومد كفه لتُقَبِّلها.. قبَّلتها ثم وضعتها فوق رأسها متضرعة إليه ومستنجدة به، فجذبها وضمها إلى صدره هامسًا:

- ستنامين الليلة بجواري.. سترين الدنيا بعيون أخرى يا صغيرتي، ولكن ما رأيك أولًا أن نصلي معًا؟ لضمان تطهيرك من كل خطيئة قد تلوث مضجعنا.

ارتعش جسدها بين ذراعيه وأغمضت عينيها بعنف، متمنية لو أنها في كابوس مظلم ينتهي بمجرد فتحهما، وراحت تصلي بكلمات متقطعة: "المجد للرب في العلا وفي الأرض، والسلام على رجال النوايا الحسنة، نسبح بك ونباركك، نعشقك ونعظمك، نشكرك على نصرك المعظم، يا إلهي ملك السماء، إله الأب العظيم، مولاي يا سيدي المسيح، الولد الأوحد، مولاي السيد الرب، السيد المسيح..".

توقفت فجأة إذ سمعت قرع نعال أحدهم على السلم، والذي طرق الباب ودلف مسرعًا:

- سيدي "الأب ليوني" أعتذر عن إزعاجك في هذا الوقت، لكن أحد حراس المكتب المقدس ينتظرك في

الردهــة لإخبــارك بأمــر عاجــل.. لقــد أخبرنــي أنــه لا يحتمــل التأجيــل.

- ألا يمكنه الانتظار للغد؟

امتعــض وجــه "الأب ليونــي" إذ كان موشــكًا عــلى خــوض ليلــة تشــبع لوعــة قلبــه، ويظفــر مــن خلالهــا بالقمــر ليلــة اكتمالــه، بينمــا أخفــت "ماريــان" ســعادتها العارمــة، عــلى الأقــل ســتنجو هــذه الليلــة أيضًــا مــن قبضتــه، ســائلة الــرب أن يــرأف بحالهــا وضعفهــا، فــلا يلــوث بصرهــا برؤيــة وجهــه مــرة أخــرى، حتــى إن آلــت بهــا الحــال بالمبيــت عــلى الطرقــات وارتيــاد ســاحات المــوت والجــوع.

"مــولاي الســيد الــرب، شــكرًا لــك".. قالتهــا سرًّا ثــم تبســمت وتعــالى صوتهــا المتلجلــج:

- الســيد ليونــي، يبــدو أن الأمــر عاجــل جــدًّا، ســأبقى في انتظــارك حتــى تعــود، أعــدك أننــي لــن أبــرح هــذه الغرفــة.

هكــذا اســتطاعت ببســمتها أن تمنيــه وتروضــه، فلــم يســعه ســوى الاستســلام والرحيــل، وقــد ازدادت آمالــه المتصابيــة بالغــة عنــان الســماء.

***

ثمة من توضع الدنيا وسبل الرفاهية في راحتها، وترى آمالها وأحلامها جلية، كعنقود انفرطت حباته بين كفيها، لكنها لم تبصر السعادة في أي منهما، إذ غدت كدُمية متحركة، تحفة مرصعة بالماس في منزل رجل لا يألفه قلبها ولا يرتوي بصرها بالنظر إليه، فما إن تشعر -أخيرًا- بحلو دنياها، حتى ترى في المقابل أنها ليست سوى قبسٍ من "آخرتها" وأن حالها تردّت من العَوز والحاجة إلى العذاب الأبدي، وأسفل سافلين.

***

المكتب المقدس

ترجل "الأب ليوني" من عربته ثم وضع غطاء رأسه متفاديًا المطر المتساقط بغزارة.. قطع المسافة القصيرة بخطوات سريعة ثم عبر السلم الحجري الداخلي، المؤدي لممر مظلم كئيب، أشبه بالخنادق المقبضة للروح، فما إن تطؤها قدم نفس حتى تشعر كما الميت في قبره.. وعلى إنارة بعض الشموع في بداية الممر، وقليل من المشاعل المعلقة بين بضعة أمتار وأخرى، تلمس "الأب ليوني" طريقه مترقبًا وجوه المعذبين، الذين لم يرهم منذ زمن، إذ يقضي بعضهم مدة عقوبته في الممر، والبعض الآخر -ممن طالتهم رحمة الرب- يقضون فترتهم داخل غرفة مغلقة بإحكام، إذ اختلفت الأحكام وطرق التعذيب، بيد أنهم جميعًا تشاركوا عقابًا موحدًا، ألا وهو التجريد من ملابسهم كافة، فالحظ كل الحظ لمن تعطف عليه السجان وأدخله إحدى تلك الغرف.

هنا على يمينه كهل مسن، طال شعره ولحيته الرمادية، وقد حكم عليه بقضاء مدة عقوبته واقفًا، مواجهًا العمود المثبت في الأرض المدببة، الذي قيدت يداه أعلاه، وهنا امرأة جالسة القرفصاء، قيدت رقبتها بطوق حديدي معلق في السقف، تضم ركبتيها على صدرها في محاولة يائسة لمواراة جسدها.. وهذا شاب

ثلاثيني ينازع الموت مئة مرة في اليوم الواحد، إثر ما يقاسيه من آلام مبرحة، نتيجة ربط يديه وقدميه بحبال غليظة ملتصقة بترسين، أضيفت إليهما بعض الأثقال، فما إن يشعر بالراحة أو يغمض عينيه دقيقة حتى يباغته السجان بإدارة الترس، فتتمدد أعضاؤه وتتمزق، فيستغيث مقسمًا بالصليب ألا تغفو عيناه مرة أخرى.. وبجواره سيدة أخرى قُيدت يداها خلف ظهرها وعلقت بأثقال في السقف، وأسفلها وضعت أسياخ محمية على الجمر المستعر، فلا تعلم أيأتيها العذاب من فوقها أم من تحت أقدامها! حتى غدا الموت بالنسبة لها سلعة باهظة الثمن.

أما هذا العجوز المنكمش في قفص حديدي، فقد اعتاد معاملته كحيوان مُدرب، لا يأكل سوى روث البهائم، ولا يشرب إلا بولها، وعلى جسده تجلت علامات السياط، حتى أخفت معالمه تمامًا.. وأخيرًا وصل إلى الغرفة في نهاية الممر، حيث افترش "جاك" الأرض، فاغرًا فاه، وقد شخصت عيناه الجاحظتان نحو السقف، إذ ثبت الحراس رقبته بطوق سميك، فلا يستطيع تحريكها يمينًا أو يسارًا.

فوجئ "الأب ليوني" من مظهره، إذ يبدو شابًّا بهي الطلعة، وسيمًا (رغم فكه -شبه المكسور- والدماء المتجلطة عليه، وانتفاخ عينه الرمادية إثر اللكمات

الوحشية بقبضة حديدية) علاوة على بشرته البيضاء وشعره الطويل الداكن الذي جمعه في شريط صغير. ولكن رغم وسامته، بدت ملامحه حادة وجادة جدًّا. ملامح مناضل، ربما صحفي، أو عامل في مطبعة، يقضي وقته طوال اليوم بين الأخبار وصحف المطالب الشعبية غير الخاضعة للرقابة!

- ما اسمك؟

سأله "الأب ليوني" ثم ركله على خده، فأجاب "جاك" بصوت غير مسموع:

- جـ جاك.

دنا من رأسه ليكرر سؤاله وقد فاحت من فمه رائحة النبيذ المختلطة بأنفاسه الكريهة:

- ارفع صوتك قدر ما استطعت، وإلا هشمت فكك.

ابتلع الشاب رضابه مكافحًا رغبته المُلحة في السعال وآلام حلقه، إثر ما تجرعه من ماء مالح قبل مجيئه "وهو اعتقاد بالٍ بأن الماء المالح يحد من آلام التعذيب ويساعد على التنفس عند الشعور بالاختناق":

- جاك.. جاك فرانسيس كابي.

لم يتمكن "الأب ليوني" من إخفاء دهشته ورعشة جسده أيضًا، فلاحقه بسؤال آخر:

- "فرانسيس كابي" الرسام الشهير؟ لا عجب إذن في ملامحك الثورية التي أراها.

- نعم، الرسام الذي اتهم ظلمًا بأنه عميل خائن، لمجرد أنه أظهر وجهكم القبيح للعالم.. لطالما شكر أبي الإله لأنه جعله أبكم وترك له بصره، وبهذا تمكن من تدوين كل جرائمكم بريشته.

أشار الأب ليوني للحارس فهوى على بطن "جاك" بسلسلة مدببة، كادت تفرغ أحشاءه، فتابع محاولًا السيطرة على قلقه وتوتر أعصابه:

- حري بك أن تتضرع ما بقي من حياتك، لأنني لم أنهها الآن بيدي. على كل أنا أتفهم موقفك، كان أبوك أعز أصدقائي بالفعل، لكنه سلك دربًا لا رجعة فيه، وهنا في محكمتنا تحت راية الصليب المقدس، لا توجد امتيازات لصديق أو قريب.. ربما كنت صغيرًا آنذاك يا جاك، لا تدرك ماهية ما حدث بالتفصيل.. حسنًا، دعني أشرح لك، لقد منحنا أباك مهمة تزيين المصليات، ورسم الملائكة والرهبان ورجال الدين، وبعض اللوحات المعلقة والجداريات للكاتدرائية والكنائس الصغيرة، وقد رحب بالمهمة حقًّا. لكن، أرأيت ما رسمه؟ لقد تحدانا واستهزأ بنا في لوحاته. انتهك قدسية المهمة الموكلة إليه برسم الانحطاط وتلك القذارة الشيطانية، فعوضًا عن رسم الملائكة، رسم الشياطين، وبدلًا من رسم

القساوسة والباباوات والرهبان، رسم العاهرات وبنات الهوى العرايا اللاتي امتلأت بهن شوارع باريس، ومن ثم زاد في تحديه السافر لنا ورسم لوحات تدين "فرنسا"، مجسدًا وسائل التحقيق والطرق التي ننتزع بها اعترافاتكم على أنها انتهاك للإنسانية والحقوق وما إلى ذلك، ومصورًا المحارق التي قضينا بها على النساء المتهمات بممارسة السحر الأسود وبناتهن اللاتي تشربن سحرهن منذ كن نطفة في أرحامهن، دون النظر إلى فعل أولئك المشعوذات المعاديات للكنيسة والوطن. أرأيت ما روجه عنا يا جاك؟ في رأيك لماذا؟ هل حبًّا في الوطن؟ أم لأنه أغرم بإحدى المشعوذات التي اتهمنا بأننا أحرقناها ظلمًا وافتراء؟

- هه أولم تحرقوها ظلمًا؟ أولم تعلقوا مئات الرجال والنساء على وتد المحرقة بتهمة الزندقة الباطلة! سيدي، لقد مات أبي.. مات جاري.. مات صديقي.. مات كل من يحمل رسالة وعقلًا مفكرًا، ففي كل مقبرة من مقابر المدينة ألقي السلام على جثمان أعرفه وكان لي معه باع من الذكريات.. والآن حبيبتي.. حبيبتي "صوفيا" وطفلي في أحشائها، تريد إزهاق روحيهما باتهامات باطلة، مثل اليهودية واقتناء الكتب المحرمة!

نعم سرقت صوفيا، لكنها لم تلجأ للسرقة إلا لأنها بحاجة للغذاء، وإلا ماتت وطفلي جوعًا. أنتم تتهموننا

بالخيانة والسرقة لحفنة طحين، بينما امتلأت بطونكم بالنبيذ الفاخر وأجود اللحوم. تتهموننا بمخالفة تعاليم الكنيسة بينما منحتم أنفسكم جميع الامتيازات متدثرين بعباءة أسميتموها "مهابة الرب".

سكت وراح يلهث إثر الشج الذي زاده ألمًا في حلقه، ثم حاول تحريك مقلتيه ببطء ليجد "الأب ليوني" جالسًا عن يمينه وبجواره حارس آخر ممسكًا بشمعة، فلما أبصر "الأب ليوني" العناد والشجاعة المفرطة التي يتحلى بها، رغم أنه تحت أقدامهم، أخذ الشمعة ودنا منه، وقد أظهر شره في حماليق عينيه محاولًا تحطيم صلابته (وفي قرارة نفسه يعلم أنه رغم تقييده أقوى منه بكثير):

- لأجل هذا أتيت بإرادتك إذن ولم تنتظر استدعاء المكتب صباح الغد، كما أخبرني الحارس.. لأجل حبيبتك "صوفيا اليهودية".

- صوفيا ليست يهودية.

- عظيم، أنت تصر مثلها تمامًا على أنها ليست يهودية، يبدو أننا سنلهو كثيرًا اليوم.

تدارك "جاك" ما قاله وبكا متوسلًا، وقد تلاشت نبرة الشجاعة في صوته:

- أسألك باسم الرب أن تطلق سراحها وترحمها، لم آتِ إلى هنا بإرادتي إلا لإبعاد التهمة عنها، أنا على استعداد

تـام للمثـول أمـام المحكمـة وقضـاء فـترة العقوبـة، أو حتـى الحـرق حيًّـا، أمـا صوفيـا فقـد قتلتهـا بخسـتي ودناءتـي مـرة، ولـن أتركهـا تعانـي مـرة أخـرى.

راح "الأب ليونـي" يـدور حولـه مدعيًـا التفكـير، رغـم حسـمه قـراره أثنـاء قدومـه بالعربـة، وبعـد دقائـق مـن الترقـب تخللهـا الكثـير مـن الألـم الـذي يعتـصر "جـاك"، أطفـأ الشـمعة بيـده واتجـه نحـو البـاب، وبعـد مغادرتـه بأقـل مـن دقيقـة أطـل برأسـه مـرة أخـرى واشرأب قائـلًا:

- سـنرى، إن كانـت بريئـة بالفعـل فسـيقويها الـرب لتتحمـل المحاكمـة القادمـة واختبـار السـؤال الـذي سـتخضع لـه، حينهـا أعـدك أن تصبـح العقوبـة مـن نصيبـك أنـت.

تحامـل "جـاك" على نفسـه وعض نواجـذه ليسـأله مترجيًا:

- إكرامًـا لصداقتـك القديمـة بأبـي، هـلا وضعتنـي مـع "صوفيـا" في غرفـة واحـدة؟ أريـد فقـط البقـاء بجانبهـا.

أشار "الأب ليوني" إلى أحد الحراس ضاحكًا:

- لا بـأس، انقلـوا العاشـق الولهـان بجـوار حبيبتـه، وليصطحبنـي أحدكمـا إلى زنزانـة "فيكتـور".

ثم تمتم حانقًا:

- فلننهِ قصة العرافة الليلة.

***

"غـدًا سـتصدح أنفـاس المحزونـين وتتـوالى دمـوع البائسـين. فـإذا صـدأت أحـلام المدينـة وأحرقـت سـفنها كافـة، تخلـت بهـذا عـن إيمـان البسـطاء وخصـال الشرفـاء، ولـن تُبنـى أسـوارها مـرة أخـرى إلا عـلى شـهوات اللصـوص المتعففـة، التـي لـم ينقصهـا سـوى فرصـة واحـدة للظهـور علانيـة، ودنـاءة النبـلاء الذيـن تعهـدوا سـابقًا بتعمـير أحـلام البسـطاء، بينمـا العهـد والذمـة منهـم بـراء.. حينهـا فقـط سـتتحول عـبرات الفقـر إلى بحـور مـن الدمـاء، ولـن تكتـب النجـاة لهـذا ولا ذاك".

- ألم أخبرك يا "فيكتور"؟ ألم أنذرك؟

وقفـت العرافـة "لوتورمـان" موليـة ظهرهـا إلى "فيكتـور".. لـم يعرفهـا إلا مـن صوتهـا، إذ لـم يفـرق بـين ردائهـا الأسـود المتشـحة بـه وجـدران الزنزانـة المظلمـة، فانتفـض جسـده وسرى الرعـب في أوصالـه:

- كيـف دخلـت إلى هنـا؟ ومـن أيـن جئـت؟ وكيـف.. كيف يعقـل أنـك عـلى قيـد الحيـاة من الأسـاس؟

- أمـا زلـت تسـأل يـا فيكتـور؟ لا شـك أن ذلـك المسـتبد تلاعـب بعقلـك.. أخـبرك أنـه أحرقنـي أليـس كذلـك؟

صرخ مذعـورًا بعـد أن لفحـت وجهـه بردائهـا وأبصرهـا مقابلـة لـه، كاشـفة عـن أنيابهـا الصفـراء اللامعـة، فأمعـن

النظـر جيـدًا بعـد أن تسـلل إليـه ضـوء خافـت مـن عينهـا، ولأول مـرة يتنبـه إلى بياضهمـا الـذي لا يتخللـه لـون آخـر:

- قال.. أعني أنه أخبرني.. لا أعلم..

لـم يتمكـن مـن التفـوه بجملـة واحـدة، فـراح يتلجلـج ناطقًـا بكلمـات متقطعـة، ولـم يلبـث حتـى خُيـل إليـه أن ظلًّا أسـود مـر مسرعًـا بجانبـه، فـإذا بهـا "لوتورمـان" التي انتقلـت مبـاشرة خلفـه وأطلقـت فحيحًـا أعقبـه صـوت عـواء خارجـي يصـم الآذان، ثـم وسوسـت في أذنـه بصوتهـا الفـظ:

- لقـد بلغـت ابنتـك القمـة يـا فيكتـور، ولكـن ألـم تسـأل نفسـك، أي قمـة؟ بلغتهـا بغبائـك وجهلـك، وغـدًا سـتتحول عـبرات الفقـر إلى بحـور مـن الدمـاء.. ألـم أخـبرك؟ لكنـك لم تسـتجب، يـا لذاكرتـك الضعيفـة يـا فيكتـور! أنسـيت أننـي أرى المسـتقبل وأرصـد حـركات النجـوم! أتنبـأ بالغيـب وأقـرأ مـا خُـط عـلى الجبـين.. أتمتـع بقـوى السـاحرات، لكننـي لـم أطـوع قـواي لـشرور نفـسي، ولـم أؤذِ أحـدًا قـط.. ورغـم ذلـك لـم أسـلم مـن نسـاء بلدتنـا العجائـز وألسـنتهن السـليطة، فاتهمتنـي إحداهـن أننـي أجهضـت طفلهـا بنظـرة شـيطانية مـن عينـي، وأخـرى ادعـت أننـي قتلـت زوجهـا بتعويـذة سـحرية ألقيتهـا عليـه، وغيرهـا روّجـت عنـي الشـائعات بأننـي أمـارس السـحر الأسـود لإيقـاع الأذى والفتـك بالأطفـال الصغـار عـن طريـق إصابتهـم بالأمـراض والأوبئـة.

هكـذا صـور لهـم اضمحـلال عقولهـم أننـي المسـؤولة عن الوبـاء المنتـشر.. صحـت فيهـم متسـائلة: مـاذا عـن الخبـز المتعفـن والمحاصيـل الغذائيـة المسـمومة؟ مـاذا عـن الميـاه الملوثـة والهـواء المعبـأ برائحـة المـوت والجثـث الملقـاة هنـا وهنـاك؟ مـاذا عـن الملـح الفاسـد المـليء بالأوسـاخ! ومـاذا عـن التوافـد أمـام المخبـز كل صبـاح حيـث تتفـشى العـدوى والأمـراض بمجـرد التلامـس! لـم أجـد ردًّا..

وعندمـا حرصـت عـلى توعيـة السـيدات والرجـال وطالبتهـم جميعًـا بإعـداد قائمـة تظلمـات لرعايـا الأبرشـية، وعندمـا طالبتهـم بالتوزيـع العـادل لملكيـة الأرض وإلغـاء امتيـازات النبـلاء، واعترضـت عـلى حصـول رجـال الديـن عـلى أعـلى الأصـوات، اتهمنـي الجميـع بالهرطقـة، وعـلى رأسـهم الخسـيس "ليونـي".

توقفَـت عـن اسـترجاع الذكريـات المضنيـة وزفرتهـا حـارة، حزينـة، إذ ندفـت السـماء بالمطـر فتناهـت إلى سـمعها زخاتـه.. اقتربـت حثيثًـا إلى الجـدار وأخذت تتحسـس شـعرها الـذي طالـه البلـل -رغـم معزلـه- وتضـع يدهـا المتيبسـة عـلى صدرهـا الوجـل:

- المطـر وليـالي كانـون الأول الحزينـة.. يـا للصـدف، ألا تذكـرك هـذه الأجـواء بحـدث مـا؟

لـم ينبـس "فيكتـور" بكلمـة، فقـط حـاول معرفـة مصدر صوتهـا القـادم مـن العـدم، إذ طـوق الظـلام الدامـس كل

شيء حولـه، فعـادت تلفـح وجهـه مـن جديـد:

- ألـم أخـبرك آنفًـا أن الأفعـال الصغـيرة المتراكمـة قـد تفتـت أقـسى القلـوب! تمامًـا مثـل قطـرات المطـر الدافئـة، لـن يلحـظ سـقوطها أحـد، لكنهـم -يـا للعجـب- سـيفجعون ويتألمـون بشـدة لمـرأى الصخـور تنفطـر وتتشـقق دفعـة واحـدة، في مشـهد يجعلهـم يتسـاءلون: "أي سـحر هـذا؟"، غافلـين عـن التفاصيـل السـابقة.. التفاصيـل يـا فيكتـور، أخبرتـك ألا تتغافـل عـن التفاصيـل لكـن.. يـا لذاكرتـك الضعيفـة!

همّ "فيكتـور" بالـرد فكتمـت أنفاسـه وقالـت بصـوت خافـت جـدًّا:

- إذا وقفنـا عـلى حافـة الأبديـة فلـن يتبقـى لنـا سـوى القفـز.. قريبًـا سـتتغلب الشـمس عـلى الثقـب الأسـود، وفي هـذه السـماوات الغنيـة بالنجـوم البعيـدة والقريبـة، سـينبثق النجـم الأصغـر والأضعـف كاسـحًا معـه أكـبر النجـوم وأعظمهـا، فالعوالـم والنجـوم شـأنها شـأننا، تولـد، وتمـوت أيضًـا، أمـا نحـن فأعمارنـا تقـاس بالعقـود ومـا جنينـاه فيهـا للمثـول أمـام الإلـه، بينمـا أعمارهـا أطـول منـا بكثير..

إنهـا فرصتـك الأخـيرة للتغلـب عـلى عقلـك، ولـو لمـرة واحـدة، قبـل أن تغـدو رأسًـا بـلا جسـد.. فرصتـك ليخلـد اسـمك بـين صفـوف المتحرريـن، وليـس مجـرد رقـم ضمـن آلاف الأرقـام التـي سـيطويها التاريـخ عـبر القـرون.

والآن استعد، فالأب ليوني في طريقه إليك، يريد استجوابك عني، فماذا ستخبره؟!

تبخرت في الهواء مخلفة دخانًا كثيفًا زاده اختناقًا، وبعد أقل من دقيقة فُتح الباب، وما إن وطأت قدما "الأب ليوني" الغرفة حتى انتابه شعور خفي، إنها القشعريرة المثيرة لحواس البدن كافة، والتي سرت في أوصاله وجمدت الدم في عروقه.. عندئذ أخذ يشمشم الهواء بأنفه الدقيق، إذ استنشق تلك الرائحة المميزة العالقة بأنفه منذ سنوات، تداعبه تارة وتختفي تارة أخرى، لكنه الآن يستطيع استنشاقها بقوة كما لو أنها المرة الأولى.

الرائحة، يا للرائحة! أتوجد جثث متعفنة هنا!

صاح بها ثم اقترب من الجدار الذي وقفت "لوتورمان" بجواره قبل قليل، فاختلطت الرائحة بأخرى أقرب إلى الحريق، وتصاعدت الأبخرة حتى شعر بالفعل أنه وسط النيران، وعلى وجهه بدت علامات الاختناق، فحاول التقاط أنفاسه ممسكًا بعنقه وقد تزاحمت الكلمات على صهوة لسانه فلم يتمكن من الصراخ أو الاستغاثة، وراح يتشبث بالهواء الذي لا تطاله يده.

لا يعلم كم مضى من الوقت وهو على حالته هذه، كخنزير بري يحاول التحرر من قفصه، بينما ظل فيكتور -في عدم فهم- ينادي الحراس بقدر ما مكنته

أحباله الصوتية المتهتكة، إلا أن أحدًا لم يجبه، والآن هما عالقان في الجحيم بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فلا يسمع لهما صوت ولا يُرى لهما أثر، بل ربما هما الآن في عالم آخر تمامًا لا يمت لعالمهما الحقيقي بصلة.. الحق أن موقفهما يحتاج إلى قوة جسدية وقلب ميت وشراسة، ولكن كيف! فالأول مصفد بسلاسله، أما الثاني فتخلت عنه شجاعته الزائفة التي طالما تفاخر بها بين الحشود، الآن تحديدًا عرف قيمة نفسه ومدى قوته "التي لم يكتسبها إلا من نفوذه وسلطانه" ولم يبق له أمل سوى في إيمانه وصلاته، تمامًا كما أخبر الشعب المنكوب على الدوام: "إن حمل قلبك الإيمان فسيقويك الرب لتتحمل الآلام، مهما اشتدت وصعبت".. عجبًا، لماذا خذله إيمانه إذن، وتخلت عنه جوارحه الخاضعة! فكلما أراد الصلاة أو النطق باسم الرب، تذكر قذارته وبشاعته وساديته، فتشوش عقله وأُلجم لسانه، واشتد ألمه.

- نادهم يا فيكتور.. هيا اصرخ بكل قوتك.

رددها بعنف ولم يدرك أن صوته لم يبرح حلقه من الأساس، فما كانت كلماته إلا حروفًا متطايرة في عقله، تمامًا كتلك الرياح الباردة التي هبت فجأة، المحملة بقطرات المطر، حتى تسللت إلى ضلوعه وأصابته بالرعشة.. يا للجنون، المطر والنار لا يجتمعان، إذن كيف؟ أيعقل أنه داخل كابوس مظلم! مسلوب الوعي والإرادة!

فجـأة، توقـف شـعوره تمامًـا، لكنـه لا يـزال يحـرك يديـه وقدميـه ويعافـر جاهـدًا لاستنشـاق بعـض الهـواء، وأخـيرًا عقـب صراع مريـر لـم يعـرف مدتـه، انطفـأ وهـج الريـاح، وخلـت الغرفـة مـن النـار وخبـت أبخرتهـا تدريجيًّـا، وعـاد لـكل منهمـا صوتـه المنقطـع، فتحامـل "الأب ليونـي" عـلى قدميـه الخائرتـين وهـرول نحـو البـاب متنفسًـا الصعـداء، ثـم مسـح عـرق جبينـه بأكمامـه مرتجفًـا وصـاح حانقًـا: إنهـا "لوتورمـان".

***

مدفــون أنت بجثتــك المتعفنة.. فلتلفظك الأرض وتبغضك الســماء

طالما كرهت السلام

عاديت الإيمان

ونشرت القبح بأجراس الآلهة

فكنت في قائمة المنبوذين

أول وآخر الأسماء

فلتلفظك الأرض ولتبغضك السماء

***

صديق غادر

حبيب خائن

فلتلفظك الأرض وليلحقك العار

عار القتل.. عار الظلم..

عار السجن مع الأخيار

***

لم تُخلق لقتل الفقراء

أو لتكون سيفًا على جبين الضعفاء

فلتتجهز أبواقنا هذا المساء

***

رغم أنف السنين القاسية

خططت نصري، وكرهت ضعفي

وبابتسامة واثقة، ألقيت عليك بتعويذة

أسميتها في سري "هزيمة نكراء"

فلتلفظك الأرض، ولتبغضك ســماؤنا الليلة.. فإنها "سماء الشرفاء"..

****

لملم الليل عباءته الثقيلة ليشع نور الصباح الأشد وطأة، الأكثر ظلمة على روح "ماريان" وكأنها ذنوب الناس جميعًا أرسلها الرب من السماء، فجثمت على صدرها متشكلة في هيئة "ليو" كما طلب منها مناداته.. تجلس على الكرسي المزخرف من الذهب الخالص قبالة النافذة، تطيل نظرها نحو السماء الملبدة، السحب المتزاحمة الغائمة، المترعة بدموع المساكين ودعوات المظلومين، فأبت إلا أن تفرغها في سيول الأمطار مرة أخرى، إذ لم تنضب ليلة البارحة.. بل يبدو أنها لن تنضب أبدًا.

كانت "ماريان" لتقف الآن أمام المخبز بجوار "صوفيا"، تزاحم النساء والرجال والأطفال أيضًا، للحصول على حصتها إن وجدت، ثم تذهب بمعدة فارغة تجمع بعض المحاصيل.. لكن الآن، أين هي وأين صوفيا؟ وهل يختلف سجن صوفيا وقمعها عن هذا المنزل الكبير المليء بالخدم والطعام وسبل الراحة كافة؟ ترى أيهما أقسى، سجن الروح أم الجسد؟ تقييد العقل أم القلب؟ هلاك البدن بأصفاده الحديدية أم تشوه النفس بصحبة من عافته ونفرت منه!

تفكر الآن بحالها وما حل بها، وقد باتت تعيش حياة الأثرياء ويقدم على مائدتها ما لذ وطاب من صنوف الطعام.. صنوف لم ترها عينها قط.. أما

قوامهـا المشـوق الـذي تـوارى في ثيابـه الرثـة، غـدا كقـوام أجمـل ملـكات فرنسـا، بعـد أن كسـاه الحريـر والكتـان.. وشـعرها المجـدول الذهبـي، انسـاب عـلى كتفيهـا متناغمًـا مـع حمـرة خديهـا، فبـدا كزهـرة عبـاد شـمس متفتحـة.

وقفـت تتحسـس حـزام خصرهـا الضيـق وتنورتهـا المنفوشـة التـي حيكـت مـن أجـود الخامـات، ثـم تلمسـت شـعرها وأغمضـت عينيهـا.. حينهـا ولأول مـرة منـذ فـترة ليسـت بقصـيرة، تتذكـر حبيبهـا الـذي لـم تطلـع أحـدًا عـلى اسـمه، ولا حتـى وصفـه، متمنيـة لـو أنـه الآن بجوارهـا، يشـاطرها هـذا النعيـم ويرى زهـو الحيـاة بعينيـه الصافيتين كصفـاء البحـر، يربـت عـلى كتفهـا ويتغـزل في جمالهـا، ويطبـع عـلى وجنتيهـا قبلـة تسـتمد منهـا ترياق الحيـاة.

سرعـان مـا خجلت مـن نفسـها وأفكارهـا التي لا تتناسـب مـع ظروفهـا البائسـة، فمـاذا عـن الذنـب الـذي تحملـه فوق عاتقهـا! مـاذا تفعـل حيـال شـعورها بالخسـة والحقـارة، والأهـم مـن ذلـك نظـرة صوفيـا والمجتمـع لهـا! صوفيـا المسـكينة التـي لـم تتسـنَّ لهـا حتـى فرصـة زيارتهـا، لتثبت لهـا براءتهـا مـن التهمـة التـي ألصقهـا بهـا "ليونـي"، فـأي معانـاة تكابدهـا تحـت بطـش المكتـب المقـدس ومجـازره التـي يرتكبهـا دون ذرة إنسـانية! وهـي تحمـل جنينهـا دون راحـة أو نـوم، دون غـذاء أو مـاء أو حتـى فحـص طبـي يخبرهـا مصـير الطفـل، والـذي جـاء نصيبـه مـن الحيـاة

"قسوة" أبصرها بعيون مظلمة، وعذابًا استقبله قلبه الواهن، وعقله الضامر الذي لن يدرك بقدومه إلى الحياة سوى حقيقة واحدة، أنه سينتقل من عالم صغير هادئ إلى عالم موحش، لا يملك قاطنوه عدلًا ولا رحمة!

الغريب أنه رغم شعورها بالذنب تجاه صديقتها، لم تفكر بأبيها، وهي التي بالأمس صرخت واستنجدت لتنقذه من يد "ليوني"! وهنا أدركت نقطة هامة غفلت عنها، أو ربما حاولت التغافل، وهي أن بكاءها زائف واستعطافها محض ادعاء.

مشاعرها صادقة بالتأكيد، لكن لربما كانت مشاعر مجردة من قلب فتاة منكوب، تجاه الرجل الذي رباها، إذ لم تشعر نحوه بمشاعر الأبوة ولو للحظة واحدة، وهو الذي فرط في واجباته على الدوام، متناسيًا أن مجرد إنجابه لها إلى الحياة لا يمنحه أحقية التنازل عن حقوقها ولا معاملتها تلك المعاملة غير الآدمية، إذ لم يرتضِ العبودية لنفسه فقط، بل كتبها على جبينها كأمر نافذ لا محالة.

فأي جرم ارتكبته سوى أنها ابنة هذا الخانع، الضعيف، الذي عاش حياته كجرذ في قفص الأسياد! وأي ذنب فعلته ليتحول رمز الحب والحنان والعطاء، إلى وحش كاسر؟ يتفنن سالبًا عقله وآدميته، في هدم وتحطيم نفسها الضعيفة المستظلة بكنفه، لا ترجو منه

شـيئًا، سـوى أن يغـدق عليهـا ببعـض العطـف والحنـان.

الآن وقـد تبدلـت الأدوار، وجاءتهـا الفرصـة لتحنـو عليـه، وربمـا ببعـض الـدلال عـلى "ليونـي" اسـتطاعت إخراجـه مـن سـجنه المظلـم، فهـل تفعـل؟! أم تتركـه لمـا جنـاه فكـره وعقلـه، وعقابـه الـذي اسـتحقه! لقـد أبلـغ عمـدًا عـن صديقتهـا رغـم علمـه أنهـا سـتخضع للاسـتجواب مثلهـا تمامًـا، مؤمنًـا بذلـك أنـه يـؤدي رسـالته تجـاه الوطـن والكنيسـة، فهـل تعاملـه بالرأفـة، أم أن فاقـد الـشيء في صغـره لا يمكـن أن يعطيـه ببـذخ في كـبره؟

ولكـن كيف تخـون حبها بالتقـرب إلى ذلك القبيـح! بل كيف تعتـصر قلبهـا وتتصنـع الـدلال، وقـد هاجـت معدتهـا بمجرد دخولهـا منزلـه والمبيت فيـه! وتقيأت اشـمئزازها دفعـة واحدة بـين أحضانـه.. ليلتـان فقـط قضتهمـا بـين جدرانـه الصمـاء الأشـبه بمشـاعره، ليلتـان فعلتـا بهـا الأفاعيـل وذكّرتاهـا بما وشـج في قلبهـا مـن هموم وآلام قاسـتها طـوال عمرهـا، فكيف الحـال لـو طالـت أكثر؟ ويـح قلبها، كتبـت عليـه العبودية مثل أبيهـا، وأن تتجـرع العـذاب في صمت تـام، فليرحمهـا الرب من عـذاب التفكير وسـهاد الليـل الطويل.

قطعـت تفكيرهـا أنامـل "الأب ليونـي" التـي تسـللت كالسـارق في جنـح الليـل، تداعـب خصرهـا الرشـيق، قبـل أن يجذبهـا نحـوه ويشـق طريقـه نحـو شـعرها يداعـب خصلاتـه، فانتفضـت أوردتهـا وكتمـت أنينهـا، بينمـا قـال

برقة دخيلة على صوته الأجش المقيت:

- أعتذر لمبيتك وحدك الليلة الماضية، فالأمر كان شاقًّا جدًّا، وبعد زيارة أبيك اضطررت للقيام بجولة بين أنحاء المدينة، والحق يقال قمنا بعمل رائع حقًّا، وها قد عدت تاركًا الجلاد وعملاء المكتب يؤدون عملهم على أكمل وجه، فاليوم كلفتهم بحرق بعض الكتيبات والمطبوعات الداعية للتمرد، وغدًا سيشنقون قاتلًا، وبعد الغد سينفذون حكم الإعدام في...

أفلتها من بين يديه ووقف يراقب تراقص لهب الشموع، المثبتة في الشمعدان الذهبي، وراح يصفق ويضحك، فبدا وجهه على أضواء اللهب كشيطان جاء من أسفل طبقات العالم:

- حدثت تغيرات مثيرة جدًّا يا ماريان، لن تصدقيها. جاء "جاك الرسام" إلى المكتب المقدس بنفسه، وطلب محاكمته بدلًا من "صوفيا"، إقرارًا بذنبه حين ضاجعها عنوة، كما وعد أن يلصق جميع التهم المنسوبة إليها لنفسه، حتى إن أعدم حرقًا أمام الملأ.. أرأيت ما يفعله العشق بقلب العاشق يا ماريان؟ في الحقيقة لا ألومه، فأنا أعيش الآن أكثر أيام حياتي ولهًا وعشقًا، بل إنني لم أعشها من قبل، ولا يخيل لي أو أفكر مجرد التفكير في رد فعلي، إن سلبني أحدهم إياك، فبمجرد دخولك منزلي أصبحت ملكي، للأبد.

حملقت وتناثر الحديث على شفاهها، فخانتها العبرات المتجمدة، والأحرف المكتظة على صهوة لسانها، فكلما استلّت حرفًا خذلها آخر، وأخيرًا تمكنت من قول كلمة واحدة:

- للأبد؟

- بالطبع.. معي ستتنعمين وتعيشين حياة النبلاء والأثرياء، الملوك العظماء، وستنسين تمامًا حياة المزارعين الفلاحين من الطبقة الدنيا.. ستتبخترين ذهابًا وإيابًا بعربة أصحاب النفوذ والسلطة ذات الحصانين، وتتناولين إفطارك وغداءك على مائدتي، عوضًا عن المثول بالساعات أمام أرفف الخباز الفارغة، لتتخذي حصتك من المخزون الضئيل من الخبز الفاسد، المطبوع عليه شعار الجوع. الجوع المنتشر كذرات صغيرة في كل شبر وزاوية من مدينة "باريس"، حيث المشردون يأكل بعضهم بعضًا في الطرقات، فهل ستتحملين هذه المعيشة أيتها الفاتنة الحسناء؟

فرَّت دمعة على خدها، معلنة عن بكاء مرير، لكنه لم يمنحها حتى فرصة البكاء، إذ مسح على خدها مسترسلًا:

- لم تسألينني فيمن سينفذ حكم الإعدام بعد الغد؟

- بالتأكيد سينفذ في ذاك الحقير "جاك"، عقب الاعترافات التي أدلى بها. لقد ارتكب جرمًا فادحًا، ومهما كان عقابه فهو يستحقه بالتأكيد.

- أما أنا فلي رأي آخر حيال هذا الأمر.

اتجه صوب النافذة متطلعًا إلى السماء، مقطبًا جبينه:

- ليس كل من اعترف بذنبه يستحق الموت.

تبسمت "ماريان" وأحست بشيء من الأمل وسط الجحيم المستعر حولها، لكنها لم تلبث حتى طنت ضحكة "ليوني" في أذنها، مستكملًا ما بدأه:

- ليس كل من اعترف بذنبه يستحق الموت، بل يستحق العذاب الأبدي.. أتعرفين الفرق بينهما؟ دعيني أخبرك.. إن أعدمت "جاك" فستنتهي حياته شاعرًا بالسعادة، منتشيًا من تضحيته وتعويضه صوفيا عما ارتكبه في حقها.. لكن، فكري معي.. ماذا لو أعدمت "صوفيا" وتركت "جاك" يتعذب بذنبها! يعيش على أطلالها وأطلال طفله الذي لم يولد! المتعة هنا أكبر بكثير يا ماريان.. فاللعبة لا تكتمل بقتل الخصم، بل بالتلذذ برؤيته يتعذب ويتلوى ألمًا.. إنها قاعدتي الأبدية، والتي بفضلها أصبحت "الأب ليوني" المعروف ببطشه وجبروته بين كل حي في باريس، بل فرنسا بأكملها.

والآن صغيرتي، أخبريني بما يدور في نفسك وما يختلجه صدرك، أظنك كنت على وشك عصيان أمري، فقد رأيت غضبًا عابرًا في مقلتيك الدامعتين، أم أنني مخطئ؟

هيا أجيبيني إن كنت مخطئًا بالفعل!

كتمت شهقاتها مدعية الثبات والصلابة، ثم سبح عقلها مفكرًا، أتصمت؟ أم تعترف بما أضمرته بين ضلوعها! وليحدث ما يحدث.. فما قاله الآن أمر شديد الفظاعة، بل هو الموت بعينه. موت لها ولأحلامها، وعذاب أبدي لحبيبها. فهل تطوي صفحات هذا الكتاب العزيز على قلبها، أم تتمرد وترفع راية العصيان غير عابئة بما يحل بها! فأقصى ما سيفعله المنحط "ليوني" إنهاء حياتها بيده، وهي بالحالتين ميتة، فلتتشبث الآن بفرصتها في قول الحق والوقوف في وجه الظلم والطغيان، لتصرخ وتبدي اعتراضها، ولتمت إذن بعزة وكرامة، على الأقل لن تعيش ما بقي من حياتها منكسة الرأس، تحمل على عاتقها ذنب صديقتها، كما كُتب على جاك.

هكذا رفعت رأسها المحني متحفزة، واشتعلت بداخلها ثورة، اختلطت بها شرور العالم وثأر المظلومين، لكن هذه الثورة لم تستمر أكثر من دقيقة، إذ تسمرت مكانها فجأة وتفحصت نظرات "ليوني" الحازمة، غير القابلة للنقاش، فتبدى الذعر في عينيها وأطرقت بصرها، وعادت تفكر من جديد "ماذا لو قدر لحياتها أن تطوى فجأة! وألا يسبر أغوارها إنسيّ، وأقصى ما يمكنها فعله في هذه اللحظة أن تحدق إلى شاطئ أحلامها ببلاهة، حيث تقف نفسها القديمة، المطيعة المسالمة، بينما تمد

يدهـا مسـتنجدة حتـى تتلاطـم الأمـواج حولهـا، فـلا يسـعها إلا الغـرق في صمـت، وسـكونٍ تـام".

***

ظـل عـلى حالـه يحدجهـم بنظراتـه، متجهـم الوجـه، يراقـب الظـلال السـوداء الضخمـة الواقفـة في الأطـراف المترامية مـن الأرض القاحلـة، منكسـة الـرأس، يمسـك كلًّا منهـا بصولجـان عريـض يحمـل جمجمـة، عيناهـا جمرتـان تشـعان بالنـار.. بقـي يراقـب الشـعاع الـذي امتـد مـن كل عـين في اتجاهـات متعاكسـة، بينمـا يصـدح في الأرجـاء صـوت يترنـم بأهازيـج لـم يسـمعها مـن قبـل، حتـى تأججـت النـيران فجـأة وبلـغ لهيبهـا عنـان السـماء، بينمـا كشـفت الظـلال عـن وجههـا رويـدًا رويـدًا.. ثـم رفعـت رؤوسـها بحركـة هادئـة، ومـن بينهـا تعـالى صـوت المـرأة: "**نسـيت أخطـاءك يـا هـذا، وتجـاوزت ذنوبـك، بينمـا رجمتنـا بسـوط الحكمـة، ونبذتنـا باسـم الإلـه، اتخـذت مـن ضعفنـا قـوة ومـن خوفنـا وذلنـا أمنًـا لـك، فانتهـض الآن وأفـق مـن سـكرة الحلـم ومقـبرة الحيـاة.. انحـنِ متأدبًـا، فيـدُ العدالـة مُـدت، وفي اليـد الأخـرى صليـب التوبـة، فأيهمـا سـتختار؟**".

الصـوت.. صـوت المـرأة يراودنـي مـرة أخـرى.. تمـلي عليّ أوامرهـا وتسـتجوبني، تنتظـر منـي ردًّا، وأنـا المقيـد في هـذا القبـو لا أعلـم إن كنـت حيًّـا أو ميتًـا!

مهلًا، أهو قبوٌ، أم قبرٌ!

فقـط لـو أجابنـي هـذا الكائـن الهلامـي الأسـود، لربمـا توقفـت عـن التفكـير واسـتطعت الإجابـة، ولربمـا علمـت

أيضًا أهو ماضيَّ أم مستقبلي؟ تبًّا، حتى هذا عجزت عن معرفته.. بالأمس سمعتُ أحدهم ينعتني بالساحر، وأنني أمارس قوى خارقة وأرتبط بالشيطان ارتباطًا وثيقًا.. فهل أنا ساحر بالفعل؟ أم راهب في خدمة الرب والكنيسة؟ فأنا أستشعر بذرة طيبة في نفسي، أو هكذا سولت لي!

ما يهمني الآن أن ينتهي ذلك الصخب المجاور، والذي يزيد يومًا بعد يوم، وأن تُمحى هذه الذكريات التي يعج رأسي بها.. لقد أقسمت ألا أفكر في النوم مرة أخرى، ففي كل مرة تغفو عيناي أستيقظ في نوبة من الهلع، لكن يبدو أن ثمة من يتحكم في نومي أيضًا ويسيطر على سمعي وبصري وجسدي وأفكاري.. باسم الرب، أنا متعب بالفعل، نبضات قلبي تتسارع وقدرتي على التنفس تنضب شيئًا فشيئًا، فهل من سبيل للهرب؟!

***

المحاكمة الثالثة

بعد مرور يوم

16 /12/ 1788

احتشدت الجموع التي اعتادت الانتظار لساعات بين هرج ومرج، من أجل مشاهدة إعدام سارق أو صلب متمرد أو حرق مهرطق على وتد المحرقة، واكتظ ميدان الإضراب[1] بجموع الشعب، ما بين مؤيد ورافض، ومتعاطف وشامت، وغاضب ومستسلم، وأطفال يتسكعون ويلعبون، إذ ينتظرون هذا اليوم بين الحين والآخر، ويحبون هذا التجمع المهيب كما لو أنه احتفال ما.

شقت الخيول البيضاء طريقها مفرقة تلك الجماعات إلى أقسام، حيث امتطى بعضها حراس من المكتب المقدس يحملون الأعلام، أو رهبان من الكاتدرائية، وعلى رأسهم "الأب ليوني" الذي عبر بخيلاء، يرمق البعض بنظرة استعلاء، ويبتسم للبعض ممن يلقون عليه التحية وينحنون له احترامًا وتوقيرًا.

(1) هي ساحة قصر بلدية باريس أو «ساحة التحرير».. نُصبت فيها المقصلة، وشهدت الكثير من الأحداث الهامة، لا سيما حرق الهراطقة، وأطلق عليها سابقًا «ميدان الإضراب» حتى عام 1803.

وبالوصـــول إلى منصـــة المحاكمـــة، توقـــف أحـــد الخيـــول حيـث قيِّـدت "صوفيـا" فوقـه، وبجانبهـا حارسـان يسـيران عـلى الأقـدام.. بجوارهـا توقـف الحصـان الآخـر حيـث يرقـد "جـاك"، فأنـزل الحـراس كلًّا منهمـا تباعًـا ثـم اصطحباهمـا ليعتليـا المنصـة، حيـث تسـمرت "صوفيـا" مكانهـا وثبتـت سـاقيها -اللتـين لا تطاوعانهـا- بأعجوبـة، أمـا "جـاك" فتحـلى بالشـجاعة المفرطـة كعادتـه، رغـم مـا بـدا عليـه مـن إعيـاء وإنهـاك نتيجـة التعذيـب المسـتمر، فنظـر إلى صوفيـا بشـعرها الحليـق ومشـيتها العرجـاء، ووجههـا المتحـول إلى جمجمـة غاصـت مقلتاهـا في محجريهمـا، وكُسـر فكهـا وتهشـمت أسـنانها.

حـاول رفـع صوتـه قـدر الإمـكان، لتتمكـن مـن سـماعه بـين هتافـات الواقفـين:

- لا تقلقـي يـا صوفيـا، لقـد أبرمـت اتفاقًـا مـع "الأب ليونـي"، وفي الوقـت الـذي تنقطـع فيـه أنفـاسي، حيـث ترتقـي روحـي إلى العالـم الآخـر، سـتتحررين أنـت مـن أصفـادك، وترممـين الصـدع الـذي أحدثتـه في قلبـك، تمامًـا كمـا وعدتـك ليلـة البارحـة.. حينهـا ستتسـنى لـك الفرصـة لتبدئـي حياتـك مـن جديـد وتنسـي المـاضي بـكل مآسـيه، لعـلي بذلـك أكفـر عمـا فعلتـه بـك ومـا سـببته مـن جـرح لـن يـبرأ، ولكـن حبًّـا في الـرب، لتتمكنـي مـن النجـاة والاعتنـاء بطفلنـا جيـدًا، اهربـي خـارج باريـس.. أتوسـل

إليك، اذهبي بعيدًا إلى بلاد لا تعرفك ولا تعرفينها.. عديني يا صوفيا.. عديني.

علت نظرة باهتة تقاسيم وجهها المتألم، تبعتها بإيماءة طفيفة من رأسها، وفي الوقت ذاته تعالى قرع الطبول ورفع الرهبان الواقفون صفًّا صلبانهم، فعلق الحراس كلًّا منهما على وتد، ووضعوا بين كفي صوفيا أحد الصلبان.

- لماذا تضعون الصليب بين كفيها؟ أوليست محاكمتي ؟

صرخ "جاك" مستجيرًا بالأب ليوني، إلا أنه لم يأبه ولم يلتفت إليه، ثم اعتلى المنصة ووقف مقابلًا لصوفيا، رافعًا صليبه، فالتزم الجميع الصمت:

- السيدة "صوفيا رافاييل"، يجب أن تفهمي أن حكمنا ليس مبنيًّا على ادعاءات دون دليل واضح، فقد مثلت خطرًا كبيرًا على البلدة وأصبحت تجسيدًا حيًّا للأفكار والأفعال الشيطانية، كما أنك آمنت بأن للإنسان سلطة أعلى من سلطة الرب في السماء والقساوسة والنبلاء في الأرض، وبهذا ارتكبت جرمك وسرقت من مدخراتهم، دون مهابة للإله ودون أدنى توقير لمجلسنا المقدس.

بالإضافة إلى تلك الكتب المحرمة التي وجدناها بين أمتعتك، وما هي إلا أكاذيب وسموم يحاول بثها أولئك

الكتـــاب والمفكـــرون في عقولكـــم، متحديـــن بذلـــك كتابنـــا المقـــدس وعقيدتنـــا الكاثوليكيـــة.

هـــز "جـــاك" قدميـــه بعنـــف، معربًـــا عـــن اعتراضـــه ورغبته الملحـــة في الـــكلام، إذ أغلـــق أحـــد الحـــراس فمـــه بوشـــاح إحدى الســـيدات اللاتـــي وقفـــن يشـــجعن "الأب ليونـــي" ويعظِّمْنـــه، وعـــلى بعـــد أمتـــار وقفـــت "ماريـــان" متخفيـــة بـــزي أســـود، مســـدلة وشـــاحها فـــوق وجههـــا، وهـــو شرط "ليونـــي" الوحيـــد ليســـمح لهـــا بحضـــور المحاكمـــة.. جففـــت دمعهـــا وحاولـــت الحفـــاظ عـــلى رباطـــة جأشـــها، فقـــد حثهـــا قلبهـــا عـــلى التدخـــل أكثـــر مـــن مـــرة، عنـــد رؤيتهـــا لمظهـــر صديقتهـــا المدمـــي للقلـــب، إلا أن لســـانها انعقـــد وأبـــى التفـــوه بكلمـــة واحـــدة، فقـــد اســـتبد بهـــا الخـــوف وتخيلـــت لوهلـــة أنهـــا فـــوق المنصـــة، بـــدلًا مـــن "صوفيـــا".

ارتعـــدت وتراجعـــت خطوتـــين للـــوراء فارتطمـــت بامـــرأة شـــمطاء بشـــعة المظهـــر، وسرعـــان مـــا التفتـــت نحوهـــا وقدمت اعتذارهـــا بانحنـــاءة مـــن رأســـها، فرمقتهـــا المـــرأة بنظـــرة اخترقـــت وشـــاحها، ثـــم همســـت في أذنهـــا تأمرهـــا بالمغـــادرة والهـــرب قبل فـــوات الأوان، ولما حاولـــت "ماريـــان" معرفة السر وراء مطلبهـــا، كشـــفت المـــرأة عـــن أنيابهـــا وهمســـت غاضبـــة:

- إمـــا الانصيـــاع لنبـــوءة "لوتورمـــان" أو الوقـــوع في الخطيئـــة الكـــبرى بـــين جـــدران "ليونـــي"، أيهمـــا تفضلـــين يـــا صغـــيرة؟

- لوتورمان؟ العرافة؟

- هششش..

رفعت "لوتورمان" سبابتها تأمرها بالصمت، ثم قالت قبل تلاشي جسدها بين الحشود:

- لا تنطقي حروف اسمي أمام ذلك الوغد، مهما حدث.

لم تتخلص "ماريان" من دهشتها وخوفها أثناء ترقبها خيال المرأة الذي شق الصفوف بسرعة البرق، دون أن يتنبه إليه أحد، ثم استقرت عيناها مرة أخرى صوب المنصة حيث يختتم "الأب ليوني" المحاكمة:

- وبناء على ما سبق، ولئلا تتكرر جرائمك مرة أخرى، أعلنت الكنيسة ذنبك، وأقرت بأن عقابك هو "الإعدام"، ولكن، رأفة منا سنمنحك بعض الوقت أيضًا لتتضرعي بين يدي الرب طلبًا لرحمته، ولتعلني توبتك أمام الملأ، وإلا ستخلدين ملعونة للأبد.

فهل ستعلنين التوبة؟

ألقت "صوفيا" بالصليب الموضوع بين يديها، فتعالت صيحات الجموع يستنكرون فعلتها وإهانتها للعقيدة، بينما حاول "الأب ليوني" تثبيته بين كفيها من جديد، سائلًا لها العفو والتطهير من فعلتها، إلا أنها ألقته مرة أخرى بغضب ونظرت نحو السماء بينما تتصارع دقات

قلبها بهوس، تفكر في صغيرها كما لو أنه طفل مكتمل من لحم ودم، وتغمض عينيها لتتخيله الآن بين أحضانها، يصرخ ويبكي إثر الظلم الواقع عليها ودمعها الحارق عليه.

ورغم رجفة جسدها المعذب بكدمات كثيرة متفرقة، فإنها حمدت الإله في قرارة نفسها، فهي تعلم أن حياة أخرى مزهرة في انتظارها وطفلها، حياة تخلو من الظلم وقسوة النفس البشرية، التي سولت للكثير بأن لهم الأحقية في ممارسة شرورهم لمجرد امتلاكهم السلطة والقوة، والذين اعتقدوا في جفوة أنانيتهم أن مجرد اعتذارهم عن فعل ما، يُسقط آثاره وتوابعه، تمامًا كما ظن "جاك".

فرغم محاولته الباسلة لرفع التهمة عنها وتوسله إليها، فإنها لم تغفر له غصتها حين قررت الهروب من البلدة حاملة عارها، كفتاة ريفية من طبقة الكادحين، ويوم ودعت حبيبها "ماكسيميليان" وأعرضت عنه، لتخبره أن ما وصلهما من مشاعر جميلة ذات يوم ما هو إلا محض أوهام، وأن الحب لم يعرف سبيلًا إلى قلبها، لتتركه يقاسي آلامه وظنونه ووحشة أيامه ولياليه.

لن تغفر له أنها ستظل "صوفيا" الخائنة في نظر حبيبها "تمامًا كنظرتها لماريان"، والتي رحلت عنه دون تفسير جلي أو سبب مقنع، ولن تغفر له أيضًا أنها

ذُبحت في هذه اللحظة بعبرات "ماكسيميليان" الواقف في الصفوف الأولى، باكيًا بحرقة، مناديًا عليها بأعلى صوت، ليظفر بنظرة واحدة أو ابتسامة يحفظها في ذكراه ما بقي من حياته.

وحينها فقط تبسمت ابتسامة هادئة، تعجبت لها الوجوه وتكاثرت الأسئلة، إذ لم يفهم أحد سببها.. وحدها "ماريان" أدركت السر وراء هذه الابتسامة، حيث شاركت "صوفيا" الكثير من تفاصيل قصتها.. لقد اطمأنت صديقتها على حبيبها وهذا يكفي، فليهدأ نواحها المكتوم وأنين قلبها المكلوم، ولتمت الآن بقلب مطمئن.

دوى قرع الطبول مرة أخرى في سماء الساحة وتعالت معه صيحات الرجال والنساء بينما يلوحون بأصابعهم رافعين علامة النصر، فقال "الأب ليوني" مراقبًا نظرات "جاك" المذعورة، منتشيًا من انتصاره الزائف عليه، إذ شعر بذلك أنه سدد ضربة أخرى لعائلة "فرانسيس كابي":

- باسم الأب والابن والروح. قرر مجلسنا الموقر بأمر من الكنيسة، إعدام السيدة "صوفيا رافاييل" في السادس عشر من كانون الأول، نظير ما ارتكبته من جرائم أقرت بها.

رفع ذراعه عاليًا لتتسارع دقات الطبول بضع ثوان، تزامنًا مع نزول يده تدريجيًّا.. وفي اللحظة التي أسقط

ذراعــه، شــد الحــارس الحبــل الغليــظ الملتــف حــول رقبــة "صوفيــا"، فظلــت تصــارع المــوت حتــى أحكــم قبضتــه حول عنقهــا، فتشــنجت ومــال رأســها للــوراء، ثــم انزلقــت عيناهــا إلى أعــلى فبــدا بياضهمــا، وأخــيرًا خــرج الزبــد مــن شــدقيها.

توقفــت الطبــول وطــوي المشــهد كغــيره مــن المشــاهد التــي ألفهــا النــاس واعتادوهــا، ليمــضي كل منهــم في طريقــه منخرطًــا في عجلــة حياتــه، باســتثناء بعــض الأطفــال الذيــن اعتلــوا المنصــة يغنــون ويتراقصــون، وهــي عادتهــم عقــب كل محاكمــة.. وبجوارهــم وقــف "ماكســيميليان" يشــاهد لحظــات نقــل الجثــة إلى عربــة الحمــير، والتــي قفــز وراءهــا مسرعًــا ليتتبــع خطاهــا، ممســكًا بيــد "صوفيــا"، يشــبك أناملــه بأناملهــا الجريحــة، ويقبلهــا بــكل مــا حمــل مــن أوجــاع الفقــد والحــسرة، ناظــرًا إلى الجمــوع ببلاهــة، ســائرًا عــلى غــير هــدى، حيــث لا يعلــم إلى أيــن تقــوده قدمــاه.

***

يـا ويـل قلـب أحـب بصـدق، لكـن أوانـه قـد فـات.. يـا ويـل قلـب بـات لـه مظلمـة، فهيهـات أن يعفـو عـن ظالمـه.. هيهـات.. ويـا ويـل مـن أضنـاه العشـق وجافاه النـوم، فظـل عاشـقًا، وإن غـدا حبيبـه محـض رفـات.. ومـا أشـبه مـن أرداه هـواه بمـن أماتـه الرعـب.. ومـن قتلـه جنـون الحـب قتلـة، لا كلمـة تصفهـا في معـترك الحيـاة..

***

محكمة التفتيش

"مساء اليوم"

- ضعوا الشموع هنا على الأرض، أنيروا كل شبر في الغرفة ولكن احذروا أن تلمسوا الجثة عن طريق الخطأ.

كتم "الأب ليوني" أنفه بقطعة قماش، متفاديًا الرائحة النتنة المنتشرة في أرجاء الغرفة، بينما يلقي أوامره على الحراس، ويوبخهم غاضبًا:

- أين كنتم ليتجرأ أحدهم ويتسلل إلى غرف السجناء ويفعل فعلته؟ أين كنتم حينما دخل القاتل ليفصل رأس "فيكتور" عن جسده! وبماذا نبرر هذه الجريمة لعامة الشعب؟ وكيف ننفي التهمة والتقصير عنا أمام الكنيسة؟ هيا فليجبني أحدكم؟ لماذا تقفون هكذا؟

لم يبرح الحراس أماكنهم ولم يتحرك أحدهم قيد أنملة، وبعد برهة تملكت الشجاعة الحارس المكلف بمراقبة الممرات والغرف ليلًا، فتقدم بينما يلتقط أنفاسه اللاهثة ويجفف عرق جبينه المختلط بملامحه الهاربة دماؤها:

- سيدي "الأب ليوني" المعظم، أدعى "ديمولان مارسيل" المكلف بحراسة هذا الممر في الوردية الليلية.

صفعه "الأب ليوني" دون تفكير، فكادت الصفعة تخترق عظام وجهه البارزة:

- وأين كنت أيها الأحمق ساعة وقوع الجريمة؟ أولم تكلف بالحراسة؟ هيا اشرح لي ما حدث بالتفصيل وإياك أن تغفل عن أي تفصيلة، مهما كانت صغيرة من وجهة نظرك الخرقاء.

لعق الحارس الدماء السائلة على فمه، ثم عض خديه من الداخل، محاولًا إخفاء ألمه إثر قوة الصفعة، ثم قال متذللًا:

- أوكد لك يا سيدي أن أحدًا لم يدخل أو يخرج منذ ولوجي، أقسم إن عيني لم تغفُ لحظة واحدة، بل عكفت أغلب الوقت أمام غرفة "فيكتور" كما أمرتني، ولم أتوانَ عن النظر إليه ومراقبته بين الحين والآخر.

- إذن كيف؟ تكلم وإلا أحرقتك الآن، وصدقني لن يكترث أحد لحرق حشرة مثلك.

- لا أعلم.. أقسم بالصليب المقدس إن الأمر خارج عن إرادتي وليس تقصيرًا في عملي.. لقد ذهبت لأتفحص بداية الممر، وذلك بعد اطلاعي على "فيكتور" الذي غط في نوم عميق.. لم يستغرق الأمر أكثر من 5 دقائق بحسب تقديري، ولكن بمجرد عودتي وتفقدي غرفته مرة أخرى، وجدت هذا المشهد المفزع.

ارتجف الحارس بينما يشير إلى الجثة، محدقًا بهلع كما لو أنها المرة الأولى، مندهشًا من زرقة الجسد والوجه، والذي اتضح من ملامحه المغلفة بالرهبة والخوف، وفمه المفتوح في ذعر، أن موتته لم تكن طبيعية أبدًا، بل ربما عُذب قبل موته:

- أي إنسيّ يمكنه ارتكاب هذه الجريمة في فترة وجيزة جدًّا؟ وأي قاتل مهما بلغت قوته وقدرته، يمكنه فصل الرأس عن الجسد بهذه الطريقة الوحشية؟ وكيف لجثة لم يمضِ على قتلها أكثر من ساعة، أن تخلف رائحة كهذه لا تصدر إلا عن حرق مئات الجثث!

وضع الحارس كفه على عينه خشية النظر مرة أخرى، ثم حاول جاهدًا الإفصاح عما يضمره، متخطيًا خوفه من الأب ليوني، الذي لم ينفك يحدجه بنظراته ويستحثه على إفراغ ما في جعبته:

- إن أردت رأيي يا سيدي، وصدقني ليس دفاعًا أو لنفي التهمة عني، لكن هذا الفعل لا يرتكب إلا بأيدي شيطان من العالم السفلي، أو ربما ساحر يجيد الظهور والتخفي وقتما شاء، بل ربما لجأ أيضًا لتنويمي ريثما يرتكب جريمته، ثم تبخر بعد ذلك وكأن شيئًا لم يكن.

- ما هذه الحماقات التي تتفوه بها؟! وكيف تتجرأ وتذكر المشعوذين والسحرة والشياطين أمامي؟ بتصريحاتك هذه ستنضم لقائمة المهرطقين، إذ تنفي

قـدرة الـرب الحكيـم عـلى حمايـة هـذا العجـوز في سـجنه، وتقـر مثـل كل جاهـل في البلـدة، بـأن قـدرة الشـياطين أعـلى منـه.. ثـم إننـا أحرقنـا آخـر نسـل شـيطاني للسـحرة منذ ما يقـرب مـن 20 عامًـا، وذلـك ليـس خوفًـا منهـم، بـل تطهـيرًا لـلأرض مـن معتقداتهـم والخطايـا المقترنـة بوجودهـم.. لقـد ذهبـوا للجحيـم المتلـئ بأمثالهـم، والآن لا صـوت يعلـو فـوق صـوت الكنيسـة وملائكتهـا.. أتفهـم؟ عـلى كل، سـأتغافل عمـا ذكرتـه الآن، لكـن لا مزيـد مـن الترهـات.

أحنـى الحـارس رأسـه، ثـم أشـار مـرة أخـرى إلى الجثـة بأنامـل مرتجفـة:

- أمـرك سـيدي، أرجـوك اصفـح عنـي، ولكـن اسـمح لي بتعليـق أخـير، ألا تـرى

كيـف فُصـل الـرأس عـن الجسـد ووضـع جانبـه بهـذه الطريقـة، دون قطـرة دمـاء واحـدة في مـكان الجريمـة؟ ثـم إننـي أشـعر.. أشـعر أن أحدهـم جمّـد دمـاء الجثـة فبـدت بهـذا اللـون الظاهـر أمامنـا.

لأول مـرة يتنبـه "الأب ليونـي" لهـذه الملاحظـة، فجُـل مـا شـغل تفكـيره منـذ اسـتدعاه الحـارس، حبيبتـه "ماريـان" ورد فعلهـا ومـا سـيترتب عـلى قتـل أبيهـا وإهمالـه في حمايتـه، مـن وجهـة نظرهـا.. لكنـه الآن أدرك حجـم الورطـة الحقيقيـة الواقـع فيهـا، والذنـب الـذي سـيتحمله أمـام الكنيسـة ويلقونـه عـلى عاتقـه، خاصـة بعدمـا يـذاع الخـبر

بين صفوف الشعب الثائرة، وما يحاولون إحداثه من اضطرابات كل يوم لا سيما في محيط الكاتدرائية، إذ ينذر كل شيء حوله بالتحول، والقلق والتوتر يسود قلوب الكثير، بل يحاولون بثه أيضًا بين صفوف الفلاحين والعبيد.

حدثٌ كهذا لن يتخطاه الشعب كغيره من الأحداث.. سيجتاح الذعر مدينتهم ولن يتوانى أي ثائر عن اللعب على أوتار مخاوفهم بإحياء ذكرى السحرة والمشعوذات، ليزيد الهرج والمرج، فهؤلاء الحمقى تفوقت مخاوفهم من السحر على مخاوفهم من محاكم التفتيش، بعدة مراحل. فماذا عساه فاعلًا إن دب الرعب بين الجموع! وإن لم يمتص غضبهم في أسرع وقت، وقد أبصر تلك التفاصيل الدقيقة أمامه؟

فالجسد ممد وقدماه مضمومتان حتى التصقتا بعضهما ببعض، والذراعان مفرودتان قليلًا للأعلى في وضعية الصلب، أما الرأس فوضع مقلوبًا بجانب عنق الضحية، ما يؤكد أن القاتل أمسكه وقلبه، ربما لإيصال رسالة ما.

- هل اقتربت من الرأس وتفحصته؟

- لا سيدي، فقط رأيته من موقعي كبقية الحراس.

دنا "الأب ليوني" من الرأس ممسكًا شمعة، ثم أمر الحارس بإمساك شمعة أخرى، ودعاه للاقتراب.. أخذ

يتفحصه من الخارج والداخل، فذهل عند رؤيته مفرغًا، حيث لا أحشاء ولا دماء! رغم سلامة جلد الوجه ومظهر المقلتين والفم المفتوح عن آخره.. انتصب شعره ذعرًا، إذ ذكره هذا المشهد بجريمة قتل إحدى فتيات الهوى، التي وجدت جثتها بالطريقة ذاتها، بعد تفتيش منزل إحدى الساحرات اللاتي تم حرقهن في محرقة باريس الكبرى، لكن الأشد وطأة حقًّا هو ما خط من الخلف على الرأس الحليق، حيث نقشت بعض الحروف والأرقام بخط دقيق، ورغم عدم فهمه للحروف المكتوبة بلغة لم يرها من قبل، فإنه عرف الأرقام بسهولة "8 6 7 1".

إنه عام المحرقة.. إذن فالأمر لا يخلو من السحر! ولا مجال للشك في ما قاله الحارس.. لم يتمالك "الأب ليوني" أعصابه إثر الأفكار السوداء التي عصفت بذهنه، إلا أنه استعاد صلابته سريعًا، فرمى الشمعة وانتصب رافعًا هامته، وبعينين حملتا ضغينة الانتقام، صاح غاضبًا:

- لوتورمان، أعرف أنك تسمعينني الآن، وسواء كنت حية أم مجرد روح هائمة، تحوم حولي للإيقاع بي، فأعدك ألا تفلتي من قبضتي، ولن أذرك إلا وقد نثرت رفاتك في كل شبر من باريس.. أعدك.

***

حتـى هـذه اللحظـة، تسـير الأمـور بشـكلها التقليـدي.. يمكـن وصفهـا بأنهـا تمـضي بشـكل جيـد، نعـم نعـم فقـد اعتـدت هـذا الصخـب وذلـك الكائـن الأسـود الجالـس أمامي، المحملـق في وجهـي ليـلًا ونهـارًا "بافـتراض أنهمـا يتعاقبـان بينمـا أرقـد هنـا".

والحـق أننـي اعتـدت هـذا الملـل المحيـط بـي، بـل توقفـت عـن التسـاؤلات ولـم يعـد للتعجـب مجـال هنـا، فأنـا أتعامـل بنمطيـة وأتقبـل جميـع الأمـور اللامنطقيـة، حتـى مـا يراودنـي مـن هـلاوس أو ربمـا أحـلام.. لا يهـم المسـمى.

المهـم أننـي تقبلـت وتعايشـت، وهـو فعـل يدعونـي للتفاخـر بنفـسي، فسـواء كنـت حيًّـا أم ميتًـا، في الحالتـين لا أملـك مـا أبكـي عـلى أطلالـه، يكفـي أننـي خـسرت حبيبتـي، ولا خسـارة ولا فقـد بعـد فقـد القلـب.. قلبـي التائـه، الشريد، الراجـف، المـترع بالمخـاوف والرعـب والقشـعريرة السـارية في أوصـالي، لكنـه رغـم ذلـك لا ينفـك يـرى حبيبتـه، ولا يتوقـف أبـدًا عـن النبـض عنـد ذكراهـا.

أهـي ذكـرى أم حـاضر؟ حقيقـة أم خيـال؟ تبصرهـا عينـاي الآن أم يتوهمهـا عقـلي المشـوش؟

حسـنًا، لقـد وعـدت بـأن أكـف عـن التسـاؤلات، كمـا أخبرتكـم أن هـذا يريحنـي جـدًّا، لكننـي أشـعر أيضًـا أنهـا راحـة ممزوجـة بالعـذاب والألـم.. فقـط أود لـو بإمكانـي الآن العـودة بالزمـن لألتحـف السـماء اللامعـة وأحتضـن ركبتـي

متأمـلًا القمـر البـازغ في إحـدى حدائـق بلدتـي الجميلـة.. الحدائـق التـي طالمـا تسـللت ودخلتهـا ليـلًا خلسـة، بملابسي المرقعـة.. مجـرد طفـل مثـل باقـي الأطفـال المتسـولين والخـدام والعبيـد، الذيـن منعتنـا العنصريـة والسياسـة الصارمـة مـن الاسـتمتاع بالهـواء النقـي العليـل، واللعـب بـين مربعـات أشـجار الفاكهـة وأشـجار السرو الخـضراء، واللهـو بـين الأزقـة والأزهـار اليانعـة، فقـط لأننـا لا ننتمـي إلى طبقـة الأثريـاء والنبـلاء.

لمـاذا تراودنـي تلـك الذكـرى في هـذه اللحظـة؟ ربمـا لأنها لا تـزال عالقـة بـين حنايـا القلـب، ولـم يلفظهـا عقـلي قـط.. هـا أنـا أرى يـديَّ تمتـدان صـوب ثمـرة التفـاح تحـاول اقتطافهـا، حيـث باغتنـي أحـد حـراس الحديقـة ممسـكًا بيـدي، ولا أذكـر كـم مـر مـن الوقـت وأنـا معلـق عـلى الشـجرة نفسـها، تغرينـي الثمـار وتتـلألأ أمـام عينـي بينمـا يسـيل لعابـي، لكننـي كذلـك لا أقـوى عـلى تذوقها أو لمسـها..

ماذا حدث بعد ذلك؟ تبًّا، لقد نسيت مجددًا..

حسنًا، كنت أقول..

يـا إلهـي مـا هـذا! لقـد تحـرك الكائـن الأسـود لأول مـرة، إنـه يتقـدم نحـوي و...

***

المحاكمة الرابعة

صباح اليوم التالي

الظلام يعم الغرفة إلا من خيوط الشمس الخجلة، تتسلل مع حركة الستارة الهادئة، مكونة ظلالًا نقوشها على السرير، ورغم أن الغرفة لم تكتظ بالكثير من الأثاث، فإن شعور "ماريان" بالضيق يزداد يومًا بعد يوم، وكأن الكمد الساكن قلبها ضاعف حجم الأثاث عشرات المرات، فتضيق نفسها أكثر.

ألقت بجسدها على السرير واكتفت بالشعاع الخارجي، الذي يحاول على استحياء إضاءة عتمة روحها، ليخبرها أن صباحًا جديدًا في انتظارها، ربما مشرق، فقط لو لم تكن حبيسة هذا المنزل.. نظرت إلى الثياب الجديدة على الكرسي بجانب السرير وأخذت تفكر، فرغم ألوانها الزاهية، فإنها لن ترمم ذبول أنوثتها وغياب ملامحها التدريجي كل يوم.. أشاحت بوجهها عنها ونظرت إلى السقف حيث غزتها الذكريات الموحشة من جديد، كمحتل غاشم يستعرض قوته في أوج المعركة، ولن يطرده سوى جيش أقوى من العواطف ومشاعر الحب والسعادة.

تحاملت على نفسها وتوجهت صوب النافذة، أزاحت الستار واتكأت على الحافة ثم طرحت الوشاح الذي يغطي رأسها، وسمحت لشعرها أن يمارس طقوس

تحـــرره، مطيلـــة النظـــر إلى الصمـــت المخيـــف لمدينـــة "باريس"، الأشـــبه بصمـــت القبـــور، حيـــث الأصـــوات خافتـــة، غـــير مســـموعة، باســـتثناء بعـــض الهمهمـــات حـــول قضيـــة مقتـــل والدهـــا، والخـــوف الـــذي اجتـــاح القلـــوب، إذ أضرم أحدهـــم النـــار في الهشـــيم، وذاع الخـــبر سريعًـــا مـــن قِبـــل أحـــد صائـــدي الأخبـــار، فلـــم يعـــد للألســـنة ســـيرة ســـوى رأس "فيكتـــور" ومـــا نُقـــش عليـــه مـــن أرقـــام، فقـــد أخبرتهـــا الخادمـــة أيضًـــا أن معظـــم النســـاء تواريـــن في منازلهـــن وأخفـــين أولادهـــن عـــن الأعـــين، خشـــية ظهـــور إحـــدى الســـاحرات أو الإصابـــة بلعنتهـــن، أمـــا الرجـــال فيحاولـــون إنجـــاز مهامهـــم سريعًـــا قبـــل غـــروب الشـــمس، فبعـــد الغـــروب تنتـــشر الســـاحرات والمشـــعوذات لممارســـة طقوســـهن.

أطلقـــت زفـــرة حـــارة وأخـــذت تزيـــح حـــزام خصرهـــا ببـــطء شـــديد، ومـــع كل حركـــة لـــه أحســـت بنشـــوة كأنهـــا تزيـــل الأســـوار المحيطـــة بجســـدها والمكبلـــة لروحهـــا.. طرحته أرضًـــا بجـــوار الوشـــاح، ثـــم رفعـــت كفيهـــا أمـــام وجههـــا وأخـــذت تتأمـــل الخطـــوط البـــارزة فيهمـــا، وقـــد تداعـــت إلى ذهنهـــا الذكـــرى التـــي لا تنفـــك تراودهـــا، والتـــي أبقتهـــا سرًّا بـــين ضلوعهـــا منـــذ طفولتهـــا، تحديـــدًا وهـــي ابنـــة التاســـعة، عندمـــا أوقفتهـــا ســـيدة غريبـــة الأطـــوار في أحـــد الأزقـــة، ولمســـت كفيهـــا وقالـــت بصـــوت واهـــن: "يـــا لـــك مـــن فتـــاة مســـكينة، ســـتقضين عمـــرك باحثـــة عـــن الحـــب والحريـــة

وتقديـر الـذات، لكنـك لـن تجنـي سـوى الـسراب، أمـا الحب فسـيحرم عليـك إلى الأبـد، وأمـا الحريـة فلـن تشـمي ريحهـا، وسـيضيق عليـك سـجن الحيـاة حتـى تلقـي حتفـك، فـإن جاءتـك فرصـة الهـرب مـن قفـص العبوديـة، لا تـترددي يـا صغـيرة.. لا تـترددي".

تـردد صـدى الكلمـات في ذهنهـا بصـوت المـرأة، كمـا لـو أنـه يطـن في أذنهـا هـذه اللحظـة، وقـد تنبهـت للتـو أنهـا سـمعت الصـوت ذاتـه قريبًـا، لا، بـل قريبًـا جـدًّا، ربمـا منـذ يـوم أو يومـين.. وبعـد تفكـير طويـل رمقـت كفيهـا بعينـين مذهولتـين.. إن لـم يخطـئ ظنهـا فهـو صـوت العرافـة "لوتورمـان" التـي أمرتهـا بالهـرب أثنـاء محاكمـة "صوفيـا".

لكـن كيـف لـم يتبـدل مظهـر المـرأة ولـم يتغـير صوتهـا بمـرور الزمـن؟! وهـل لظهورهـا علاقـة بمقتـل أبيهـا! أيعقـل أنهـا فصلـت رأسـه عـن جسـمه، ومـا تداولـه عامـة الشـعب مـن تفسـيرات ليـس مجـرد شـائعات؟ وإن صـح هـذا التفسـير فمـا الرابـط بـين تلـك العرافـة وفيكتـور؟

أفـكار وأسـئلة كثـيرة انهالـت عـلى عقـل "ماريـان"، إلا سـؤال واحـد، تعجبـت أنـه لـم يطـرأ عـلى ذهنهـا: "هـل هـي حزينـة لمقتـل أبيهـا وفراقـه؟".

هـي تعلـم الإجابـة جيـدًا، لـذا اكتفـت بالصمـت والنظـر إلى السريـر الـذي تهـرب منـه وإليـه منـذ دخولهـا الغرفـة،

فهو ملاذها الوحيد رغم ما يدسه بين جنباتها من أشواك تمارس معها ساديتها لحظة ملامسة جسدها، لكنه كذلك يظل ملاذها الآمن.. هكذا عادت إليه ولامست الغطاء بأناملها المرتعدة، وقد أحست بنعومة غريبة تجذبها للانغماس به، فتبسمت ابتسامة الضحية المستسلمة، متسائلة: "كم من المرات سيساندها الرب ليتأجل موعد إعدامها بين ذراعي ليوني!".

تكورت على نفسها في وضعية الجنين، وهي الوضعية الوحيدة التي تشعرها بالأمان منذ طفولتها، إلا أن الأشواك لا تزال مغروسة في كل شبر من جسدها، الشاهد يومًا على أنوثتها المطموسة.. أخذت تتقلب كمن يريد الإفلات من أيدٍ عابثة.. تتابع خيوط الشمس وظلالها الراقصة، وتسعى للإمساك بها لتشعر بملمس الضوء، كما لو أنه كائن حي مثلها، وبعد الكثير من المناورات أخيرًا غلبها النعاس، إذ شعرت بثقل ملء أجفانها، فاستسلمت بهدوء للسبيل الوحيد لهروبها من التفكير "النوم".

لا تعلم كم مضى من الوقت، وكم ساعة استغرقت في النوم! جل ما عرفته أنها استيقظت فجأة، وقد اجتازت إدراكها والحد الفاصل بين الوعي وعدم الشعور الإحساس.. ربما تحلم أو تهلوس، وربما نامت عددًا لا بأس به من الساعات، فالظلام حولها يؤكد أن الشمس قد غربت منذ زمن، ليحل القمر مستترًا خلف السحب الملبدة.

حاولت الجلوس على طرف السرير ثم جاهدت ليستقيم جسدها المنهك، تحاول إجلاء ضوضاء عقلها الغارق في دوامة، وإثباط خفقان قلبها ودقاته المتسارعة دون سبب واضح، سوى أن الغرفة غارقة في ظلامها الدامس المخيف، إلا من ضوء شمعة واحدة على المنضدة بجانب السرير.. من أشعل الشمعة إذن؟ لا يهم. الأهم هو معرفة السبب الذي أيقظها فجأة وأتلف أعصابها بهذا الشكل الغريب؟ ربما كابوس مروع أرّق مضجعها، لكنها لا تذكر أيضًا أنها رأت حلمًا أو كابوسًا.

شعرت بأنامل خفية تسري على جسدها فالتفتت مذعورة: "أهذا أنت يا ليو؟" أجابها الصمت، إذ خلت الغرفة من أي شخص سواها، ورغم ذعرها وتجمد الدم في عروقها فإنها حمدت الإله أنه لم يكن الأب ليوني، ثم حاولت بعد ذلك تجاوز الحدث سريعًا بأن أمسكت الشمعة وتقدمت ببطء نحو النافذة، علها تتمكن من تحديد الوقت بدقة.

لكنها لم تلبث حتى شعرت بأنفاس تداعب عنقها، تبعتها همهمات غير واضحة، فاستدارت مسرعة، وفي اللحظة التي استدارت فيها سرت القشعريرة في أوصالها، وهوى الرعب على قلبها المتجمد إثر هول الصدمة، إذ اكتشفت للتو أنها ليست وحدها في الغرفة.

اقتربت أكثر من السرير، فتبلورت صورة أحدهم على لهب الشمعة المتراقص.. جسد عارٍ مستلقٍ في المنتصف، هزيل البنيان، وقد اتضح من معالمه عند اقترابها أنه رجل.. زحفت للوراء وصرخت بكل مخاوفها في هذه اللحظة، حتى اصطكت أسنانها وتساقطت حبات العرق الغزير على جبينها، رغم برودة الأجواء حولها، إلا أن هذا الجسد لم يحرك ساكنًا ولم يلتفت إليها.

مضت بضع دقائق بين ترقب وخوف وقلق، فلما تيقنت أن الجسد لا يزال في حالة جمود تام، نهضت وتقدمت نحوه بخطوات متثاقلة، بينا تتمتم ببعض الصلوات سائلة الرب النجاة.. اقتربت منه تاركة مسافة كافية لحمايتها في حال انقض عليها أو باغتها، ثم دنت منه أكثر وحاولت الإمساك بجسده، إلا أنها فوجئت بيده المتصلبة ترتفع من تلقاء نفسها، قبل سقوطها مرة أخرى في أقل من ثانية، فارتعدت أوصالها أكثر، إذ فطنت أنها تقف الآن أمام جثة أحدهم، ولكن جثة من؟

وجهت أصابعها المرتجفة نحو الوجه لمعرفة هويته، إلا أن ما رأته جعلها تصرخ هذه المرة بقوة زلزلت الأرض تحت قدميها.. صرخة ربما دوت في أنحاء باريس بأكملها، لتكسر صمتها المميت، لكنها كذلك لا تزال بمفردها في الغرفة، ما يعني أن أحدًا لم يسمعها قط.

أغمضت عينيها في محاولة بائسة لإقناع نفسها أنها تعاني كابوسًا مروعًا، إلا أن مقلتيها اتسعتا عن آخرهما بمجرد فتحهما مرة أخرى، فالجسد الممدد وضعها أمام حقيقة واحدة لا مناص منها.. حقيقة أنها في هذه الغرفة المغلقة بصحبة جثة مقطوعة الرأس.

سارعت الخطا نحو الباب تجر طرف فستانها بيد، وباليد الأخرى تتلمس طريقها على ضوء الشمعة، لكنها توقفت فجأة في المنتصف، إذ تعرقلت قدمها بجسم صلب، فحاولت إبعاده دون النظر إليه، لكنها لم تلبث حتى تعلق في قدمها من جديد، فانحنت نحوه وقذفته بعنف بينما تلعنه في سريرتها، وبمجرد أن قذفته توقفت لاإراديًّا ورمقته بطرف عينها، راجية ألا يصدق حدسها.

كتمت شهقتها ودفنت وجهها في كفها، فما أبصرته أبشع بكثير من تخيلاتها.. إنه رأس بشري يتدحرج أمامها دون عنق، وكأنه فصل عن جسده بفأس حادة، والأكثر ذعرًا أن ملامح وجهه رغم لونها الداكن، بدت جلية جدًّا على لهب الشمعة.. هكذا اقتربت منه أكثر تزامنًا مع رائحة ذوبان الجلد المنتشرة في الغرفة، لتكتشف أنها تقف أمام رأس أبيها.. تواثبت نبضاتها وتسمرت قدماها، وأخذت تنظر إليه بجمود ولسان منعقد، فهي عالقة بين الرأس أمامها والجسد وراءها، والذي استقام فجأة وبدأ يترنح نحوها ببطء كحية تتلوى.

والآن تحديـدًا أيقنـت أن الفـرار مسـتحيل، عندمـا أُشـعِلت الشـموع مـن العـدم وتراصـت حولهـا، مكونـة حلقـة، لتقـف في المنتصـف ومـن فوقهـا تكـررت ملامـح فيكتـور في عـشرات الـرؤوس، تتراقـص بحركـة دائريـة، فسـهمت بعينـين دامعتـين إلى النافـذة المفتوحـة كأنهـا تسـتقطبها "أن هلـم لتقفـزي" فهـل تلبـي النـداء وتقفـز لتنهـي حياتهـا والجحيـم الـذي تعيشـه؟ ولكـن كيـف، والجسـد لا يـزال يترنـح باسـطًا يـده نحوهـا!

شـعرت فجـأة بقطـرة دافئـة تداعـب أنفهـا فرفعـت بصرهـا لتجـد وابـلًا مـن الدمـاء المتسـاقطة والأحـداث المتلاحقـة، فملامـح فيكتـور تسـتغيث وتسـتنجد بهـا، والـرؤوس تقـترب شـيئًا فشـيئًا بينمـا الأفـواه فتحـت عـن آخرهـا تـدوي صرخاتهـا في أرجـاء الغرفـة، أمـا الجسـد فيمـد يـده الهزيلـة وقـد اسـتطالت أصابعـه.. صرَخـت ثـم وثبـت فـوق الشـموع وهرولـت بـكل مـا أوتيـت مـن قـوة.. تعثـرت في فسـتانها عـدة مـرات، فزحفـت مسرعـة نحـو البـاب دون الالتفـات إلى الخلـف، لكـن الحـرارة التـي شـعرت بهـا ورائحـة الشـمع الذائـب المتوغلـة في أنفهـا، حذرتهـا مـن خطـر داهـم وجعلتهـا تلتفـت رغمًـا عنهـا، إلا أن أحبالهـا الصوتيـة لـم تسـعفها هـذه المـرة، فهـي بالفعـل "تحـترق".

انطـوى المشـهد ولـم تشـعر "ماريـان" بعـد ذلـك إلا وضـوء الشـمس يتسـلل عـبر النافـذة مـن جديـد، وكأن

شـيئًا لـم يحـدث.. بجانبهـا جلـس الأب ليونـي متلهفًـا وقـد انفرجـت أسـاريره، يمسـح عـلى رأسـها وجبينهـا الـذي تصبـب عرقًـا:

- كان حلمًـا مزعجًـا ليـس أكثـر.. وجدتـك مغشـيًّا عليـك عنـد بـاب الغرفـة وبالـكاد هـدأت روع جسـدك المرتجـف حتـى أفقـت أخـيرًا، والآن لا تخـافي فأنـا بجانبـك.

- أبعـد يديـك، بـل إننـي لـم أعـرف شـعور الخـوف إلا بجانبـك، ولـم يرتجـف قلبـي سـوى بمـرور هـذه الأصابـع الماكـرة عـلى جسـدي. تقـول إنـه حلـم! لا يـا سـيدي لـم يكـن حلمًـا، بـل رسـالة جليـة واسـتغاثة رأيتهـا في ملامـح أبـي، تمامًـا كمـا أراك الآن بينمـا تريـد الاسـتحواذ عـليّ.. القصـة واضحـة ولا تحتـاج إلى تسـاؤلات، أنـت قتلتـه حتـى لا أجـد مـلاذًا إلا هـذه الغرفـة التـي بـت حبيسـتها ليـلًا ونهـارًا. ولأجـل ذلـك منعتنـي حتـى مـن زيارتـه ورؤيتـه، ألسـت محقـة!

صاحـت في وجهـه وراحـت تزيـح كفـه عـن جبينهـا، فلـم يحتمـل النظـرة في عينيهـا واتهامهـا المبـاشر لـه.. لكـن كيـف يثبـت لهـا أنـه ارتكـب كل الجرائـم عـلى مـدار حياتـه، إلا هـذه الجريمـة، بـل إنـه لـم يفكـر أبـدًا في قتـل "فيكتـور" لأجلهـا فقـط، لـذا فقـد اكتفـى بوضعـه تحـت الحراسـة المشـددة، وأمـر الحـراس بتنفيـذ جميـع متطلباتـه.

كيف يثبت إذن أنه لم يرغب في أذاه؟ كيف! فهذه النظرة المثيرة للشفقة والحقد الذي يكسو نبرتها والغضب الذي يعتريها، لن يصلحها ألف اعتذار أو كلمة مواساة.. هو يدرك في قرارة نفسه أن الفتاة محقة في بغضها له، وهو الذي أحال حياتها جحيمًا بين ليلة وضحاها، لكن الأهم من تأنيب ضميره الآن، أن يثبت صدق أقواله، وأن مقتل فيكتور خارج عن إرادته، على الأقل (كإنسيّ).

ابتعد قليلًا وقال مستعطفًا:

- أتفهم جيدًا ما تمرين به، بدءًا باتهامك بالخيانة في نظر صديقتك ونظر الجميع، مرورًا بدخولك هذا المنزل والعيش بين أسواره، فخروجك منه يعني الموت المحتم، وأخيرًا مقتل أبيك بهذه الطريقة البشعة، لكنني..

ران الصمت لحظات، ثم أردف مترددًا في قسمه:

- لكنني أقسم بحبي لك (وهي المرة الأولى التي أقسم بغير الصليب) أن ما حدث كان مدبرًا منذ زمن، وليس وليد اللحظة.

قاطعته بحدة:

- تقسم بحبي! أي حب هذا الذي تطوق فيه الفريسة لتمارس مشاعرها بالإكراه؟ ثم تمنعني بعد ذلك من رؤية أبي، خشية أن أرى آثار التعذيب عليه كما هي

الحال مع "صوفيا" فلم ترغب في زيادة بغضي لك، لكن تشوهات جسدها ووجهها أنبأتني عما يمارس في مكتبكم المقدس، بمباركة قساوستكم، وعلى مرأى ومسمع من كنيستكم الموقرة.. أهكذا تنتزعون اعترافات الضحايا إذن! ناهيك عما خفي! الآن فقط تيقنت من صدق حكمي على عقيدتكم الجائرة وادعاءاتكم الزائفة.

لطمها وكور قبضته عازمًا قراره بأن يهشم فكها، لكنه كالعادة ضعف أمام دمعاتها فزفر هواء صدره الغاضب دفعة واحدة، ثم كتم غيظه وراح يجوب الغرفة مفكرًا في عواقب ما سيقوله، ووقعه على نفسها:

- أعلم أن ما سأقوله أمر يصعب تصديقه، بل يستحيل، وأنا الذي عشت عمرًا كاملًا لا أومن بهذه الخرافات وأدُك براثنها كجحور النمل، أقر الآن بما أنكرته طوال حياتي، مؤمنًا بتجسده بكل شروره في هيئة تلك المشعوذة التي دبرت كل شيء منذ زمن، فـ"لوتورمان" لا تنسى ثأرها أبدًا.

لم تزده نظراتها الممتلئة بالريبة، إلا توترًا ورغبة في الإفصاح عن المزيد.. حسنًا، فليثبت لها صدق أقواله أولًا، ثم يذهب العالم برمته إلى الجحيم.. والآن الغمام يزداد كثافة أمام عينه، ورؤيته أضحت ضبابية للغاية، فهو بصدد الدفاع عن نفسه ضد جرم لم يقترفه.. ذلك الشعور الملازم له بأن الليل يدنو رغم شمس الظهيرة

التـــي لـــم تغـــب.. الشـــعور الـــذي طالمـــا مقتـــه وخشـــيه في طفولتـــه، المنـــذر باقـــتراب حـــدث جلـــل تتقلـــص لـــه أمعـــاؤه.

جلـس عـلى حافـة السريـر وأطبـق كفيـه حـول معدتـه، ثـم أخـرج منديـلًا قماشـيًّا وبصـق رضابـه المتزاحـم إثـر القلـق المسـيطر عليـه:

- إن الحفـاظ عـلى عقيـدة وبلـدة بأكملهـا، أمـر معقـد وعسـير للغايـة يـا ماريـان، ولا يسـعني ذكـر كـم عانيـت وقاسـيت لأصـل إلى مكانتـي في الكنيسـة، وأحكـم قبضتـي لأديـن كل مـن سـولت لـه نفسـه تحطيـم صـورة الإلـه، ليعلم الجميـع أنـه لا يوجـد سـوى عالـم واحـد، عالـم الـرب، وأن المعتقـدات الدخيلـة الباعثـة عـلى التفكـير والتمـرد، مـا هـي إلا تبجـح وتعـدٍّ وتقليـل مـن مهابتـه، بينمـا نحـن جميعًـا في خدمتـه عـلى الأرض، فهـو الوجـود الوحيـد في هـذا الكـون، ومـا دونـه مُنْتَـهٍ إلى زوال.

السـارق يـا ماريـان مهمـا اختلفـت أسـبابه، يبقـى سـارقًا، والخائـن المعـادي لأوامـر الكنيسـة يظـل خائنًـا، ومدعـي العلـم المؤمـن بالمبـادئ السـوداء زاعمًـا بـأن المـادة تتحـل إلى عنـاصر صغـيرة، زنديـق يسـتحق المـوت.. جميعهم يسـتحقون المـوت، هـذا مـا تعلمتـه منـذ صغـري، وآمنـت بـه عقـب المـرور بمواقـف عـدة لا داعـي لذكرهـا الآن.

لقـد أقدمـت بمحـض إرادتـي عـلى مجازفـة خطـرة جـدًّا، لكننـي عرفـت هـدفي منـذ البدايـة، وأظننـي سـأنال احـترام

الأجيـال القادمـة بمجـرد ذكـر اسـمي، بـل سـيقفون أيضًـا أمـام قـبري يذرفـون الدمـوع بعـد تخليـد اسـمي، وهـو مـا طمحـت إليـه.

- أنـت كاذب يـا ليونـي، تحـاول المراوغـة ليـس أكثـر.. مـا علاقـة مـا ذكرتـه بالعرافـة لوتورمـان ومقتـل أبي؟

- أوشكت على ذكر هذه النقطة فأرجوك لا تقاطعيني.

قالهـا محـاولًا السـيطرة عـلى ألـم معدتـه، ثـم طفـق يـئن بصـوت خافـت وجثـا عـلى ركبتيـه فـوق الفـراش:

- لا تخافي لن أقترب.

عـاد يلتقـط أنفاسـه محـاولًا اسـتعادة تركيـزه، مصغيًـا إلى صنـدوق ذكرياتـه الـذي نسـيه منـذ زمـن:

- بـدأت القصـة منـذ 20 عامًـا، تحديـدًا بحلـول يـوم 10 /11 /1768.

1768/ 11/ 10

العاشرة صباحًا

حادثة واحدة غيرت مجرى حياة الكثير في صباح ذلك اليوم، حينما اتجه "فيكتور" في طريقه إلى المزرعة برفقة زوجته، وبمجرد اجتيازهما أحد الأكواخ، دوت صرخة شنيعة طويلة، ارتجفت لها أبدانهما.

وكما عُرف عن "فيكتور" منذ زمن، أنه مهووس بخوفه من السحر والساحرات، بل كل ما يتعلق بالكائنات الشيطانية (كما أسماها) وقواها الخفية، وما يترتب على الاقتراب منها والاختلاط بها من كوارث ومصائب، لذا فقد سعى جاهدًا للقضاء عليها، وذلك من خلال إبلاغه عن كل من ارتاب في أمره، وظن أنه يمارس السحر أو الشعوذة، ورغم ذلك فإنه على النقيض تمامًا، آمن بالعرافات وقارئات خطوط الكف، والمتنبئات بالمستقبل باستخدام وسائل خفية أو خارقة للطبيعة، اعتقادًا منه أن تلكم السيدات منحهن الرب الكثير من الشفافية، وأرواحهن الطاهرة تخولهن لعلم الغيبيات، على عكس الساحرات ممن يراقصهن الشيطان ويضاجعهن في حفلات العربدة والمجون.

لـذا، سرعـان مـا قـاد الفضـول "فيكتـور" ليعـود أدراجه راغبًـا في اقتحـام الكـوخ، ورغـم رفـض زوجتـه ومحاولاتهـا منعـه، فإنـه أصر وعـزم قـراره بالدخـول، وفي نفسـه تعهـد بالإبـلاغ عـن أصحـاب الكـوخ وحرقهـم، إن ثبـت أنهـم ينتمـون إلى هـذه الطائفـة، فخوفـه مـن السـحر ومـا قـد يجلبـه عـلى البلـدة مـن نحـس وفقـر ووبـاء، تغلـب عـلى ضعفـه المتعـارف عليـه.

هكـذا أمـر زوجتـه بالبقـاء جانبـه ثـم اقتحـم الكـوخ المتهالـك، القابـل للانهيـار بمجـرد التعـرض لريـاح قويـة أو أمطـار غزيـرة، لتظهـر امـرأة بدينـة، قبيحـة الوجـه، شـديدة السـواد، تسـدل عـلى شـعرها الرمـادي وكتفهـا قطعـة قماشـية سـوداء.. نظـر إليهـا مرتابًـا إذ حملـت في يدهـا اليمنـى بعـض القـش الأصفـر الخشـن الـذي يسـميه العامـة (دمـاء السـاحرات)، وفي الأخـرى أمسـكت شـمعة طويلـة، رغـم أشـعة الشـمس المتسـللة إلى الكـوخ، وأمامهـا تمـددت طفلـة عاريـة لـم تتعـدَّ الثالثـة مـن عمرهـا، في حالـة يرثـى لهـا، وقـد بـدا الإعيـاء الشـديد عـلى وجههـا الأصفـر وجسـدها المتشـنج، وعينهـا الغائـرة والزبـد السـائل مـن فمهـا.

ووفقًـا لمعتقـدات "فيكتـور" أُقـر عـلى الفـور بـأن المـرأة سـاحرة، مثـل اللاتـي اشـتهرن في تلـك الآونـة بقدرتهـن عـلى إيجـاد الأغـراض الضائعـة وعـلاج المـرضى ظاهريًّـا (بعـد

إصابتهم بلعناتهن سرًّا)، وبهذه الحيلة انساق وراءهن المئات من الجهلاء وعديمي الإيمان بقدرة الرب.

هكذا ثار وغضب وطفق ينادي بأعلى صوت، ليجمع الرجال والنساء والأطفال، ثم واجهها بجرمها وتوعّدها بالإبلاغ عنها وعن الطفلة الغائبة عن الوعي، والتي يبدو من مظهرها أنها تمارس عليها طقوس التسميم الشهيرة، قبل ذبحها وتقديمها لروح الشيطان.. ورغم بكاء المرأة وتوسلها وقسمها إن الطفلة ابنتها، وإنها تعاني الحمى منذ أيام وتصرخ من سوء حالتها وشدة ألمها، فإنه وضعها أمام خيارين لا ثالث لهما، إما الاعتراف بممارستها السحر، أو نفي شكوكه بالدليل القاطع.

وبحسب ما علمت، نشبت خلافات عديدة بينه وبين زوجته، فقد حاولت منعه عدة مرات من القدوم إلى المكتب المقدس، وخشيت كثيرًا إصابتهما بلعنة المرأة، إن اتضح أنها ساحرة بالفعل، وربما ألقت عليها تعويذة تمنعها من الإنجاب تمامًا، فينقطع نسلهما إلى الأبد، إلا أن "فيكتور" لم يأبه لرأيها، وقد أصر على الوقوف حارسًا للكوخ، بصحبة بعض السيدات اللاتي استجبن لندائه، حتى لا تهرب المرأة بالطفلة، ثم طلب منها الذهاب إلى أقرب حظيرة، وأمرها أن تعود ومعها أحد الحيوانات، برفقة من يرعاهم، وذلك بعد إعلامه بالسبب ليكون شاهد عيان أيضًا على ما سيحدث.

جـاءت زوجتـه بعـد فـترة قصـيرة، وبجوارهـا رجـل مفتـول يسـحب خنزيـرًا صغـيرًا وراءه، وكان نجـاح الاختبـار الـذي سـيجريه "فيكتـور" أو فشـله، مقترنًـا ببقـاء الخنزيـر عـلى قيـد الحيـاة، فكمـا نعلـم جميعًـا أن نفـوق الحيوانـات دون سـبب في منطقـة بعينهـا، دليـل قاطـع عـلى أن المنطقـة تعـج بالسـاحرات والمشـعوذات.. وقد اتضـح أن المرأة سـاحرة بالفعـل، إذ نفـق الخنزيـر بمجـرد مثولـه أمـام الكـوخ، دون سـبب واضـح، كمـا أخبرنا الراعـي الـذي أدلى بشـهادته لاحقًا، أنـه لاحـظ تغـيرًا واضحًـا في سـلوكه بمجـرد خروجهـم مـن الحظـيرة، فقـد ارتعـش جسـده وأخـذ يلعقـه باسـتمرار، وهـي ليسـت عادتـه عـلى الإطـلاق.

والحقيقـة أننـي أعجبـت بشـخص "فيكتـور" وخوفـه على الأرض والوطـن، فمنـذ وقعـت عليـه عينـاي بدخولـه مكتبنـا المقـدس، وقـد أخـبر الحـراس بأهميـة الأمـر واسـتحالة تأجيلـه، أدركـت عـلى الفـور مـدى اسـتفادتنا منـه في مـا بعـد، فلـولا وجـود أمثالـه مـن الفلاحـين، وجهـوده المضنيـة، لمـا عرفنـا بوجـود تلـك السـاحرة، لـذا فإننـي لـم أرَ منـه مـا يريـب أو يوحـي بالكـذب، بـل إن الجميـع يعلم مـدى خطورة العبـث مـع محاكـم التفتيـش.. هكـذا لـم أهتـم بالتحقـق من صـدق ادعائـه بعدمـا رواه لي، بـل توجهنـا فـورًا بصحبـة بعـض الحـراس نحـو الكـوخ، حاملـين مشـاعلنا، حتـى إذا مـا راوغـت السـيدة البدينـة، أحرقناهـا عـلى الفـور.

لكـن الغريـب أننـا وجدنـا المـرأة عـلى حالهـا والطفلـة لا تـزال ممـددة أمامهـا، بينمـا التـف جمـع مـن النسـاء حـول الكـوخ، إحداهـن تصـلي، وأخـرى تحـاول حمايـة أطفالهـا، وفي الجهـة المقابلـة عجـوز تهتـف لتوعيتهـن إن حاولـت السـاحرة الخـروج مـن كوخهـا، أو رميهـن بلعناتهـا، بينمـا تطمئنهـن بـأن الـرب سـيحميهن مـن بطشـها.

وهنـا وضعـت في اعتبـاري احتمالـين، أنهـا لـم تـبرح مكانهـا رغبـة في التحـدي، أي إنهـا انتظـرت قدومنـا حتـى تتبخـر في الهـواء وتحلـق أمامنـا فـلا نسـتطيع الإمسـاك بها، وبهـذا تكـون قـد حققـت نـصرًا غـير مسـبوق، بإثباتهـا أمام المـلأ أن قدراتهـا تفـوق قدراتنـا بكثـير (وهـو في نظـري أمـر مسـتحيل).. والاحتمـال الثانـي أن المـرأة بريئـة بالفعـل، ولـم تتمكـن مـن الهـرب بعدمـا حـاوط الكـوخ هـذا الحشـد، فلـم يعـد بوسـعها سـوى الانتظـار ومواجهـة مصيرهـا المحتـوم.

وقفـتُ أراقـب المـرأة التـي لـم يـرف لهـا جفـن، حتـى بعـد رؤيتـي، أمـا ابنتهـا -بحسـب ادعائهـا- فلـم تحـرك سـاكنًا، وبـدت منفصلـة عـن عالمنـا تمامًـا، بـل أقـرب للأمـوات.. لقـد أبـصرت في وجههـا شـيئًا مريعًـا غـير آدمـي، لـم أسـتطع تفسـيره.. أيعقـل أنـه تأثـير الحمـى؟! ولـو أنـه تأثـير الحمـى، فلمـاذا أبـصرت الانطبـاع ذاتـه في وجـه المرأة!

وقبـل أن آمـر الحـراس باصطحابهمـا إلى المكتـب المقـدس للتحقيـق في الأمـر، أفاقـت المـرأة من سـكرتها فجـأة، وصاحت

بهـذه الكلمـات المتقطعـة: "باسـم الـرب.. أسـألك أن تشـفي ابنتـي.. إنها تموت.. سـيدي.. لا أجـد علاجًا لها.. هذه الأعشـاب لا تجـدي نفعًـا.. سـتموت سـيدي.. أرجـوك.. الرحمـة لأجلها".

بـدت لكنتهـا غريبـة قليـلًا، وبعيـدة عـن الفرنسـية.. لكننـي لـم آبـه بصياحهـا ونحيبهـا الـذي لـم يتوقـف، فهـي مجـرد سـاحرة.. نعـم، لا شـك في ذلـك.. هـذه النظـرة الشـيطانية المتواريـة خلـف العـبرات المزيفـة، والفتـاة المطروحـة المُسـيطر عليهـا كليًّـا مـن كيانـات أخـرى، جميعهـا علامـات قاطعـة لا تقبـل الشـك، وبنـاء عـلى ذلـك، وعـلى الرغـم مـن أن المـرأة ارتمـت تحـت قدمـي، أصـدرت أوامـري باسـتدعائها، وألا يخضـع أحـد الحـراس لبكائهـا واسـتعطافها.. مهمـا حـدث.

مـرت السـاعات والتحقيـق لا يـزال مسـتمرًّا مـع السـيدة البدينـة، والتـي رفضـت رفضًـا قاطعًـا الإفصـاح عـن اسـمها أو اسـم ابنتهـا، رغـم خضوعهـا لاختبار السـؤال الـذي نجريه مـع أي متهـم، والـذي يعـترف تحـت وطأتـه في أقـل مـن 5 دقائـق، إذ لـم يحتمـل أي رجـل عتـيّ الجلـوس عاريًـا، مقيـد اليديـن والقدمـين عـلى كـرسي مدبـب بالمسـامير في كل بقعـة منـه، بينمـا الأثقـال مثبتـة فـوق جسـده، فـلا يسـتطيع الحـراك مهمـا حـاول، حتـى إذا مـا اخترقـت المسـامير كل أعضائـه لا يجـد مـلاذًا سـوى الإقـرار بالذنـب.. أمـا هـي، فمـن أيـن لهـا بتلـك الصلابـة والقـوة والقـدرة عـلى التحمل!

لـم أعـرف كـم مـضى مـن الوقـت والسـيدة تنـزف دماءها مـن كل جـزء في جسـدها المثقـوب، وأخـيرًا اتخـذت قـراري سـواء أقـرت بذنبهـا أم لا، فاسـتدعيت الحـارس ليفـك قيدهـا ويـزج بهـا في إحـدى الغـرف، حتـى إذا مـا حـل الصبـاح أحرقناهـا وابنتهـا أمـام العامـة، فمـن تتحمـل ذلـك العـذاب دون صرخـة واحـدة، محـال أن تنتمـي إلى البـشر مثلنـا.. ولكـن، في لحظـة واحـدة تبـدل كل شيء، إذ انهـارت المـرأة كليًّـا وأخـذت تـصرخ وتبكـي.. تهلـل وجهـي وانتشـيت لرؤيتهـا مستسـلمة لآلامهـا، فالـصراخ لا يعنـي سـوى أن الأوان قـد آن لـلإدلاء باعترافهـا، لكـن يبـدو أن المـرأة البدينـة تـصر عـلى مراوغتـي، أو ربمـا إثـارة فضـولي وتعجبـي، فمـا نطقـت بـه عقـب الـصراخ أذهلنـي أكثـر مـن صمتهـا.

"el fuego esta ardiendo"

عرفت حينها أن المرأة ليست فرنسية، بل إسبانية!

وبحكـم إجادتـي قليـلًا للإسـبانية عرفـت أن الشـق الأول مـن الكلمـة هـو "النـار"، ولكـن مـاذا تعنـي بجملتهـا؟ ومـا الـذي جـاء بهـا إلى هنـا؟

سـألتها عمـا تقصـده بكلماتهـا، فعـادت ترددهـا مـن جديـد بينمـا تضحـك بطريقـة مثـيرة للذعـر، والشـفقة أيضًـا.. أهـي مريضـة؟ أم لعلهـا تحـاول التهـرب مـن تهمـة السـحر بهـذه الأفعـال المبهمـة.

عـدت أسـألها، مـاذا تقصـد، وعـن أي نـار تتحـدث؟! فأطلقـت قهقهـة عاليـة جـدًّا ثـم قالـت بالفرنسـية:

- ابنتي.. أرجوك سيدي، أين هي الآن؟

يـا لـذكاء هـذه المـرأة وقدرتهـا عـلى المراوغـة.. حسـنًا، لقـد اختـارت طريقـة جديـدة للتهـرب، لكنهـا لا تعلـم أن جميـع الحيـل لـن تنطـلي عـليّ، فقـد تهـاوى تحـت قدمـي المئـات، نسـاء ورجـال، ثـم خضعـوا أذلاء مقريـن بذنـوب اقترفوهـا، أو حتـى لـم يقترفوهـا.. هكـذا أخبرتهـا أنهـا لـن تفلـت مـن العقـاب والمحاكمـة، ولسـوف تعـترف بذنبهـا وتنـال جزاءهـا، وإن لـم تفعـل فسـتنتظرها أيـام قاسـية هـي وابنتهـا، أقـسى ممـا تتخيـل.

في اللحظـة ذاتهـا دخـل أحـد الحـراس مسرعًـا، حامـلًا في يـده مظروفًـا مغلفًـا بـدا عليـه القِـدم، ثـم أخبرنـي لاهثًـا أنـه مـن قائـد إحـدى السـفن التـي رسـت عـلى ميناء "بـوردو"، والـذي أرسـله بشـكل عاجـل وأمـر بتسـليمه إلى المكتـب المقـدس، قبـل إطـلاع أعضـاء الكنيسـة عليـه.

فتحـت المظـروف المغلـق بإحـكام بينمـا أراقـب نظـرات المـرأة المتحولـة، إذ بـدت متشـككة وخائفـة مـن شيء مـا.. وبصعوبـة بالغـة تمكنـت مـن معرفـة فحـوى الرسـالة، بقـراءة كلماتهـا الباهتـة جـدًّا:

"إلى مكتبنا المقدس الموقر، لا أعلم متى تصلكم رسالتي، لكنني آمل وصولها بأسرع وقت كما أمرت سائق العربة.. أدعى "جان كاميل" قائد إحدى سفن الرقيق التي غادرت ميناء بوردو منذ عدة أشهر، محملة ببعض السلع من قبيل الأسلحة والقلادات والقبعات والنبيذ وغيرها، بهدف مقايضتها بالعبيد الأفارقة الذين تخلت عنهم مواطنهم.. جابت سفينتنا المحيط الأطلسي ورست على سواحل غرب إفريقيا، لتحمل على متنها أكبر عدد من العبيد، منهم نساء ورجال وأطفال، وقد قررنا بيعهم من جديد مقابل منتجات المزارع مثل القهوة والسكر والكاكاو.

ما حدث سيادتكم أننا تمكنا من مقايضة 100 عبد من الرجال و50 من النساء، ربما أكثر، فقد عجّت السفينة بأطفالهن أيضًا.. لقد أطاعنا الجميع وتمكنّا بنسبة كبيرة من السيطرة على محاولاتهم للتمرد، إذ لا ملاذ لهم ولا مأمن سوى السفينة المقيدين على متنها، باستثناء امرأة واحدة لم تكف عن التمرد والصراخ.

كانت امرأة بدينة قبيحة المظهر، تحمل طفلتها بين ذراعيها والتي لا تشبهها في ملامحها أو حتى لون بشرتها.. ورغم أن المرأة لم تبدُ عليها أمارات التعلم قط، فإنني دهشت عندما خاطبتني بأكثر من لغة، لم أفهم منها سوى الفرنسية، حيث صاحت بين الفينة

والأخرى بجملة واحدة: "النار تشتعل".. حاولت معرفة اسمها أو موطنها، لكنها في كل مرة كانت تراوغني ببراعة، وأخيرًا اضطررنا إلى عزلها عن البقية حتى لا تؤثر على طاعتهم وانصياعهم لأوامري، ثم قيدناها وطفلتها، بل أحكمنا إغلاق فمها أيضًا بحبل غليظ.

سألت العبيد عنها، وما إن كان أحدهم على دراية باسمها أو موطنها الأصلي، فتقدمت سيدة برتغالية طاعنة في السن، يبدو عليها الوهن، وطلبت الإذن للإدلاء بمعلوماتها التي تعرفها، لكنها كذلك ليست متيقنة من صحتها.

قالت السيدة إنها التقت المرأة البدينة في "البرتغال" خلال عملية عرضهن على تجار الرقيق، وأخبرتها أن اسمها "أنجيل"، وأنها ترغب في الذهاب إلى باريس والاختباء بها، بعد هروبها من محاكم التفتيش في إسبانيا بتهمة السحر والهرطقة، وذلك بعدما أبلغ عنها والد زوجها، إذ أراد إبعادها عن ولده المدلل الذي تزوجها سرًّا دون موافقتهم، بل أنجب منها أيضًا، وهي العاملة الفقيرة في إحدى المزارع، حيث نصَّت قوانين عائلتهم الثرية ألا يتزوج البيضُ السودَ، مهما كانت الظروف، بل اعتبروا مرتكب هذا الفعل مذنبًا يستحق العقاب، فقد طغى ذنب لونها الأسود على ذنب فقرها من وجهة نظرهم، وطالما اعتبروا أصحاب البشرة السوداء كائنات

أحطّ شأنًا، محدودة القدرات، وتعاملوا معهم على أنهم ممتلكات شخصية لهم، حتى حجروا حريّتهم وقيدوها في أقفاص العبودية فقط.

ولأن التاجر فاحش الثراء لن يسمح بمعاقبة ولده، فقد أبلغ عن زوجته متهمًا إياها بالسحر، وأنها مارست طقوسًا ملعونة لاستمالة قلبه وعيش حياة الأثرياء، بينما موطنها الأصلي بين صفوف العبيد الأفارقة، ولكنه لم يكتفِ بالإبلاغ فقط، بل قايض بعض أعضاء المكتب المقدس بدفع تبرع سخي جدًّا لترميم إحدى الكنائس، ورسم جداريات للدير، مقابل حرق "أنجيل" وطفلتها التي لا يتشرف بانتسابها إلى نسلهم من البيض.

ولم ينتهِ الأمر عند هذا الحد، بل اشترى التاجر شهودًا ليقصوا عن المرأة حكايات مزيفة، وذلك بعد تطوعهم للإدلاء بشهاداتهم والقسم باسم الصليب المقدس على صدق أقوالهم، لكن المرأة البدينة تمكنت من الهرب بابنتها، بعد استدعائها من المكتب المقدس، وذلك بمساعدة زوجها الذي دفع الكثير من المال لرُبان إحدى السفن المتجهة إلى البرتغال، ليخفيها عن الأنظار على متن السفينة.

كما أخبرتها أن زوجها عقد معها اتفاقًا بأنه سيوهم الجميع بحرقها عقب هروبها، إذ أشعل النيران في الكوخ الذي سكنت فيه بالقرب من المزرعة، والذي كان محل

لقائهما أيضًا، مدعيًا أمام الملأ أنه نادم على زواجه من ساحرة مثلها، وأن نسلها الشيطاني لا ينبغي أن يرتبط بنسله الشريف بأي شكل من الأشكال.

***

سكتت السيدة البرتغالية فجأة وقد بدا الذعر في عينيها، وحملقت في الفراغ من خلفي، فلما التفتّ للوراء وجدت المرأة البدينة تقف متبسمة، بينما تحمل طفلتها الفاقدة للوعي بين ذراعيها، والآن لا يمكنني إنكار دهشتي وخوفي أيضًا عند رؤيتها، فقد قيدتها بيدي.. من فك قيدها إذن؟

لكن الأدهى من ذلك أن السيدة البرتغالية أخبرتني بشفاه مرتجفة أن الطفلة بين ذراعي المرأة البدينة ليست ابنتها، فقد عرفَت من تاجر الرقيق في البرتغال أن طفلتها توفيت إثر تعرضها لحمى شديدة، بالإضافة إلى نقص العلاج والغذاء، ومنذ ذلك الحين والمرأة تتفوه بكلمات مبهمة وغير مفهومة، بالإضافة إلى توعدها بالانتقام ممن تسببوا في أذيتها، وأشياء من هذا القبيل.

وهنا أدركت أننا في مواجهة مشكلة أخرى.. فضلًا عن كونها ساحرة هاربة من المحاكم الإسبانية، فإنها أيضًا اختطفت طفلة ذات بشرة بيضاء، ربما لممارسة طقوس السحر عليها واستغلالها لصالحها، كوسيلة لتحقيق أهدافها والتقرب إلى الطبقة المخملية والأرستقراطية، ما يمكّنها من

التلاعب بقراراتهم وسلوكياتهم، تمامًا كما فعلت مع زوجها، (وفي ظني أن الأمر لن يتوقف عند هذه الفتاة، بل سيمتد إلى سلسلة لا متناهية من الفتيات الصغيرات)، أو لعلها اختطفتها لاستعادة روح ابنتها في جسدها، بعد ممارسة شعائر القداديس الشيطانية عليها وذبحها.

لقد انتهت معلوماتي عن المرأة إلى هذا الحد، إذ لم تمنحني الوقت الكافي لمعرفة المزيد، فقبل أن يرف جفني قفزت بطفلتها في الماء بسرعة فائقة، ثم اختفت عن الأنظار تمامًا، وأنا هنا لا أبالغ في قولي إنها اختفت، بل تبخرت إن أردتم الدقة، فقد مشّطنا المنطقة المحيطة بنا وحاولنا اقتفاء أثرها، دون جدوى..

إن العبء الذي أحمله ثقيل جدًّا، وخوفي من القادم وما ستحدثه تلك الساحرة من هرج ومرج واضطرابات وذعر، إن تمكنت من دخول ميناء "بوردو" وتسللت إلى ضواحي باريس، جعلني أراسلكم على وجه السرعة، والآن الأمر متروك لسيادتكم، وكلي يقين في جهودكم المبذولة وقدرتكم على الجمع بين اللين والشدة، للسيطرة على أي اضطرابات محتملة، كذلك التعقل والحنكة، لتتمكنوا من الوصول إليها من خلال عملائكم المنتشرين بين عامة الشعب والعبيد والفلاحين.

ولا شك أنكم ستجدونها في بقعة ما وسط أكواخهم ومنازلهم، فمثيلاتها يتخذن مساكنهن بين الجموع،

تحديـدًا بـين النسـاء والأطفـال الذيـن يجوبـون الطرقـات بحثًـا عـن الطعـام والـشراب، فالسـاحرات لا يتغذيـن إلا عـلى ذبـح الفقـراء وتقديمهـم قرابـين للوصـول للأعـلى منهـن شـأنًا، لـذا أتمنـى وقـوع تلـك السـاحرة في قبضتكـم قبـل امتـداد لعنتهـا، مـع يقينـي التـام أن لهـا أعوانًـا من السـحرة والمشـعوذات في "باريـس" واللاتـي سيسـعين لمسـاعدتها بوسـائلهن الشـيطانية، مـا يشـكل خطـرًا كبـيرًا عـلى كل مـن حولهـن، قـد يتمثـل في تفـشي الأمـراض والأوبئـة أو احـتراق المحاصيـل والزرائـب دون سـبب واضـح.

ولسـت بحاجـة إلى تذكـير سـيادتكم بـأن للسـاحرات قـدرة فائقـة عـلى التنكـر والتخفـي بـين الحشـود، فمـن المحتمـل رؤيتهـا خادمـة في أحـد القصـور، أو فلاحـة في إحـدى المـزارع، أو ربمـا إحـدى الراقصـات في الحانـات، أو بـين الفتيـات اللاتـي يمارسـن البغـاء في الطرقـات، لكـن الـشيء المؤكـد أن الكـوارث والمصائـب سـتقترن بـأي رقعـة تطؤهـا قدمهـا، فأرجـو تنبيـه العامـة وتحذيرهـم.

وأخـيرًا، أتلمـس منكـم العـذر، إذ لـم أتمكـن مـن القـدوم لـضرورة بيـع العبيـد وإتمـام الصفقـة، لكننـي حاولـت جاهـدًا إحاطتكـم علمًـا بالمعلومـات كافـة، وأرجـو إبـلاغ تحياتـي أيضًـا لأعضـاء الكنيسـة، وتقبلـوا وافـر الاحـترام".

جان كاميل

1758/ 11/ 10

لا يمكنني وصف دهشتي وانفعالي، وجميع مشاعر القلق التي انتابتني بمجرد انتهاء القراءة، فالتاريخ التي ذيلت به الرسالة أدخلني في نوبة من التشتت والخوف المفرط، وهو شعور لم أشعر به من قبل.. كيف حدث هذا؟

الرسالة منذ 10 أعوام! والمواصفات المذكورة عن المرأة الساحرة تنطبق تمامًا على السيدة البدينة أمامي.. أحدهم يعبث معي بالتأكيد.. تفكرت مليًّا في كل الاحتمالات الواردة، فمن الممكن أن تكون خدعة من أحد المتربصين للإيقاع بي، وربما لا يتعدى الأمر كونه مجرد صدفة، وتشابه بين مواصفات الساحرة المذكورة والمرأة التي عثرنا عليها اليوم! أو لعل الرسالة كانت فخًّا أرادت إسبانيا زعزعة أمننا به، إبان الحرب بيننا! ثم أخطأت مسارها منذ زمن، فضلّت طريقها وتناولتها أيدي المارة حتى وجدها أحدهم وجاء بها إلى المكتب المقدس!

لكن كيف تتطابق صفات المرأة وابنتها إلى هذا الحد! كذلك تنبهت إلى نقطة هامة غفلت عنها في بداية الأمر، ألا وهي تشابه اليوم! فالرسالة كُتبت في العاشر من شهر تشرين الثاني، واليوم نحن في العاشر من تشرين الثاني أيضًا.. ولو أنه فخ والمظروف ضاع بين الحشود بالفعل، فكيف يُعثر عليه بعد 10 سنوات دون أن يُفتح أو يتمزق أو تشوبه شائبة! فالشيء الوحيد الذي بدا

عليه هو القدم.. بل كيف عرف من وجده أنه مُرسل إلى المكتب المقدس من الأساس!

هكذا ناديت الحارس الذي امتثل أمامي مسرعًا، وسألته عن مواصفات الرسول الذي سلمه المظروف، فأخبرني أنه رجل فاره الطول، قوي البنية، يرتدي زيًّا ضيقًا وحذاء مدببًا من طراز (أحذية بولين)، وقبعة تغطي نصف وجهه، إذ لم يتبين سوى شفتيه بينما يتحدث إليه، وقد أخبره بما أخبرني به فقط.

عدت أسأله إن لاحظ شيئًا غريبًا في هيئة الرجل أو لكنته، فسكت قليلًا ثم أخبرني أن لكنته غريبة، بل إن كلماته خرجت بصعوبة بالغة، كما لو أن أصوله ليست فرنسية.. سكت مرة أخرى معتصرًا ذاكرته، ثم هتف وأخبرني أن الرجل قد اختفى عن ناظريه خلال ثوانٍ، رغم أنه لا توجد عربة في انتظاره، ما أثار دهشته وتعجبه، لكنه لم يلق بالًا للأمر.

لم أتمالك نفسي حينها، فصفعته على وجهه ووبّخته لأنه لم يخبرني بهذه التفاصيل الدقيقة قبل تسليمي المظروف، ثم نظرت للمرأة الجالسة في جمود تام كأن على رأسها الطير، وتوعدتها أن تتم محاكمتها وحرقها في غضون شهر لا أكثر، ولكن قبل ذلك لا بد من وضع ابنتها تحت اختبار الساحرات، لمعرفة مدى خطورتها وما إن كانت تحت تأثير المرأة أم لا.. كذلك

أمــرت بإطــلاق حمــلات مكثفــة للبحــث في ضواحــي باريــس بأكملهــا، والإبــلاغ عــن أي امــرأة يشــتبه في كونهــا ســاحرة أو مشــعوذة بــأي شــكل مــن الأشــكال.

في صباح اليوم التالي ذهبت إلى بيت "فيكتور" لرؤية الطفلة، فقد أمرته بإخفائها حتى انتهاء التحقيق مع المرأة البدينة، ورغم ملامح التردد الفاضحة لما أضمره، فإنه لم يتمكن من التفوه بكلمة واحدة، فهو لن يجازف أبدًا بوضع نفسه تحت المساءلة لرفضه مطلبًا من المكتب المقدس، بالإضافة إلى ترحيب زوجته بالفكرة، والتي تعلقت بالطفلة جدًّا وأشفقت عليها، بل تمنت لو أن بإمكانها العناية بها ورعايتها، تعويضًا عن أمومتها المفقودة، فهي وفيكتور لم يرزقا بأطفال رغم زواجهما منذ عدة سنوات.

وفي الحقيقة لم تمثل "إيفلين" زوجة "فيكتور" نموذجًا لثبات وصبر المرأة المسيحية، إذ لم تتقبل عقمها، بل جزعت واحتجت على حكمة الرب، حتى إنها قالت لي بغضب: "سيدي، أرجوك اترك الطفلة تحت رعايتي بعد وضعها تحت الاختبار، ولنتخذها ابنة لنا، فجميع نساء البلدة رزقن بأطفال، إلا أنا، حتى تلك الشمطاء التي لا أقل عنها جمالًا، رزقت بثلاثة أبناء، وتلك المدعوة "جوليانا" سيئة السمعة، لديها من الأطفال أكثر حتى مما تستطيع إطعامهم.. وأنا، المرأة الصالحة المتضرعة التقية، فلم أنجب كما ترى.. لذا أرجوك يا سيدي لا تأخذ الفتاة".

شعرتُ في كلماتها شيئًا من التعدي على الرب، وطعنًا في عدالته، والكثير من أحاسيس الضيق والغيرة المتنافيين مع ادعائها التضرع والتقى، ولو أننا في ظروف أخرى

لأمـرت بإعدامهـا عـلى الفـور، لكـن جُـل مـا شـغلني هـو الوصـول إلى حقيقـة السـاحرة أنجيـل.

طلبـت منهـا إلقـاء نظـرة عـلى الفتـاة، لكنهـا أخبرتنـي أنهـا تغـط في نـوم عميـق بعـد مجـيء الطبيـب الـذي أرسـلناه لمعالجتهـا، فسـألتها أن توقظهـا، وبعـد مـضي دقيقـة دوَّت صرخـة "إيفلـين" فهرعـتُ و"فيكتـور" لنجـد الغرفـة فارغـة بينمـا زوجتـه في حالـة ذهـول تـام.

"أين اختفت الفتاة؟".

صرخـت متسـائلًا، فأقسـمت "إيفلـين" إنهـا تركتهـا نائمـة، بالإضافـة إلى أن الطبيـب أخبرهمـا أنهـا لـن تفيـق قبـل حلـول الليـل، كمـا أن النافـذة مغلقـة أيضًـا.. لا أعلـم كيـف تمالكـت أعصابـي حينهـا ولـم أصفعهمـا لإهمالهمـا، فقـد تمكنـت المـرأة مـن الفتـاة، واسـتطاع أعوانهـا تهريبهـا بطريقـة مـا عـلى غفلـة منهمـا، وإن لـم أحرقهـا سـتعم الفـوضى باريـس، خاصـة عندمـا يعلـم الجميـع أن الفتـاة حـرة طليقـة، وقـد تسـممت بدمـاء السـاحرات وسرت لعنتهـن في أوصالهـا.

وبينمـا أنـا في أوج الحنـق والتفكـير، سـقطت "إيفلـين" مغشـيًّا عليهـا.. حينهـا ظننـت أن الأمـر متعلـق بحزنهـا عـلى اختفـاء الفتـاة، لكننـي علمـت لاحقًـا مـن "فيكتـور" أنـه اسـتدعى إحـدى القابـلات، والتـي بشرتـه بـأن زوجتـه تحمـل طفـلًا في أحشـائها.

أمـا نحـن، فقمنـا بجهـود مكثفـة وانقسـمنا لعـدة فـرق، ثـم اقتحمنـا عـشرات الأكـواخ والمنـازل، ولـم يمـض الكثـير حتـى عثرنـا عـلى مجموعـة كبـيرة مـن الأرامـل والعجائـز، اللاتـي ارتبنـا في انتمائهـن إلى السـاحرات، حيـث سرت الشـائعات منـذ زمـن بـأن هـذه الفئـة تمثـل مـادة خصبـة للشـياطين، وطالمـا كـن أكثـر عرضـة لاسـتخدامهن في إلقـاء التعاويـذ، وتمكينهـن مـن اسـتخدام القـوى الخارقـة التـي تشـاع عـن السـاحرات، مثـل الطـيران في السـماء ليـلًا أو تغيـير شـعور الإنسـان مـن الحـب إلى الكـره، والقـدرة عـلى التحكـم بالرعـد والمطـر، أو التشـكل عـلى هيئـة حيـوان أو طـير.

بالإضافـة إلى القـدرة عـلى مضاجعة الشـياطين، للمسـاعدة في انتشـار نسـلهم في شـتى البقـاع، وغيرهـا مـن الأسـاطير التـي لا أصـدق معظمهـا ولا أومـن بجديتهـا، بـل اعتبرتهـا مجـرد خرافـات سـطحية للتقليـل مـن مهابـة الـرب، لكننـي كذلـك لـم أتـوان يومًـا عـن مطـاردة السـاحرات، امتثـالًا للأوامـر الموكلـة إليّ مـن الكنيسـة.. هكـذا بحلـول المسـاء احتجزنـا نحـو 50 امـرأة للتحقيـق في شـأنهن، وفي غضـون يومـين بلـغ عـدد المتهمـات 200، ربمـا أكثـر، ومـن بـين المتهمـات اللاتـي راوغـن كثـيرًا، وقعـت تحـت طائلتـي سـيدة تدعـى "لوتورمـان"، والتـي أذهلتنـي بذكائهـا وقدرتهـا عـلى التلاعـب بالألفـاظ، فرغـم مظهرهـا المـزري الموحـي بالفقـر

والجهـــل، فإنهـــا تحدثـــت بطلاقـــة ومصطلحـــات فلســـفية تتنـــافى تمامًـــا مـــع هيئتهـــا.

ولأكـــون محقًّـــا، زاد هـــذا الأمـــر مـــن حنقـــي المســـبق، وأثـــار المزيـــد مـــن شـــكوكي نحـــو المـــرأة، خاصـــة أننـــا تمكنّـــا مـــن الإمســـاك بهـــا في منـــزل إحـــدى المشـــتبه فيهـــن، بعدمـــا أبلـــغ عنهـــا أحـــد الرجـــال أثناء التقـــصي، واتهمهـــا بممارســـة طقوس الســـحر في كوخهـــا، الأمـــر الـــذي أكدتـــه بعـــض الســـيدات، واللاتـــي أقســـمن عـــلى ســـماعهن الكثـــير مـــن الهمهمـــات والهمســـات ليـــلًا، رغـــم أن المـــرأة تعيـــش بمفردهـــا، كمـــا ادعين أن إصابـــة أطفالهـــن بالأمـــراض المزمنـــة، ارتبطـــت ارتباطًـــا وثيقًـــا بمجـــرد مـــرور "لوتورمـــان" أمامهـــن ورؤيـــة وجههـــا المشـــؤوم، أو حتـــى إلقـــاء التحيـــة عليهـــن.. كمـــا أضـــاف رجـــل آخـــر أنـــه رأى كائنًـــا متشـــحًا بالســـواد، تـــردد عـــلى كوخهـــا في المســـاء لأيـــام متتاليـــة، وأنهمـــا وقفـــا بالســـاعات أمـــام الكـــوخ يراقبـــان الســـماء فقـــط، في مشـــهد مثـــير للريبـــة والتســـاؤلات، ممـــا لـــم يـــدع مجـــالًا للشـــك في تعاونهـــا مـــع الشـــيطان، بـــل مضاجعتـــه أيضـــا كغيرهـــا مـــن الســـاحرات.

حينهـــا ســـارعنا باقتحـــام الكـــوخ، لكننـــا وجدنـــاه خاليًـــا، إلا مـــن بعـــض الكتيبـــات الصغـــيرة المرســـوم عـــلى غلافهـــا الصليـــب، فظننـــت لوهلـــة أنهـــا امـــرأة تقيـــة، لكـــن بالنظـــر إلى مـــا بـــين طياتهـــا وجدتهـــا تناقـــش الكثـــير مـــن المبـــادئ الســـوداء في الرســـائل الفلســـفية للمخـــادع "فولتـــير".. لـــذا

أمـرت فـورًا بتمشـيط المنطقـة بأكملهـا، وذلـك بمسـاعدة عامـة الشـعب الذيـن حرصـوا عـلى تطهـير البلـدة خوفًـا ممـا سـيلحق بهـم.. وأخـيرًا بعـد تفتيـش دام لسـاعات، وجدناهـا في كـوخ إحـدى الأرامـل، وأمامهمـا جثـة ممـددة مقطوعـة الـرأس، والتـي عرفنـا لاحقًـا أنهـا إحـدى فتيـات الهـوى اللاتـي يـترددن عـلى الحانـات كل ليلـة.

باسـتجوابهما أدلـت السـيدة الأرملـة باعترافهـا فـورًا، وأقـرت بـأن العرافـة "لوتورمـان" جاءتهـا عـلى غفلـة وهـي مـن أحـضرت الجثـة إلى كوخهـا، بعدمـا وجدتهـا ملقـاة عـلى قارعـة الطريـق كغيرهـا مـن الفتيـات الأخريـات اللاتـي تسـتغلهن السـاحرات لإتمـام صفقاتهـن الشـيطانية، كمـا أقسـمت إنهـا منعتهـا وسـألتها المغـادرة فـورًا وإلا أبلغـت عنهـا، لكنهـا أبـت إلا أن تكمـل طقوسـها لمعرفـة الحقيقـة كاملـة.

وقـد أذهلتنـي "لوتورمـان" حقًّـا بعـدم إنكارهـا اعـتراف المـرأة، بـل أقـرت بـكل مـا ذكرتـه، لكنهـا كذلـك أصرت عـلى الدفـاع عـن نفسـها مشـيرة إلى أنهـا المـرة الأولى، حيـث قالت:

"لقـد حاولـت تحقيـق العدالـة الغائبـة، بعـد فشـلكم في البحـث عـن الجُنـاة، فبنـات البغـاء تسـتباح أجسـادهن كل يـوم في صمـت تـام، إذ لا يُعـرف لهـن نسـل ولـن يتـضرر لاختفائهـن سـوى بعـض الثمـالى.. أمـا أنـا فـلا أمـارس السـحر أو الشـعوذة كمـا ادعـى هـؤلاء الجهـلاء.. أنـا فقـط

أردت استخدام موهبتي التي ميزني بها الرب لقراءة ما خط على كف الفتاة، أو جبينها، ربما من خلال الخطوط استطعت التنبؤ بما حل بها، أو معرفة نسلها، أو حتى المقربين منها في الآونة الأخيرة، مما يمكننا من الوصول لاسم الساحرة أو الخسيس الذي فعل فعلته، موقنًا بأنه لن يتعرض للمساءلة، بل لن يفتش عنه أحد من الأساس، ولو أن فيكم رجلًا عادلًا، أو على أقل تقدير تؤدون عملكم على أكمل وجه، ما اضطررت إلى طويها كالقمامة في قطعة قماش رثة، بعد رؤيتها مذبوحة بهذه الوحشية".

أثار ردها سخطي وأشعل رغبتي في تعذيبها، فتطاولها واتهامها الواضح، بل فلسفتها وجرأتها المفرطة في الحديث، استفزت قوتي وسطوتي، وحينها قبضت عنقها وتوعدتها بأن تكون في صفوف المحرقة الأولى، فأمثالها يشكلن خطرًا هائلًا على نساء البلدة المسالمات الخانعات، ولكن قبل ذلك، كان لا بد من إدخالها غرفة التعذيب ليحفر اسمي في روحها وذاكرتها، حتى بعد احتراقهما.

مضت ثلاث ليال من التحقيق المستمر مع جميع النساء، ثم أوقفته بأمر من الكنيسة لمنحهن فرصة التوبة قبل الحرق، عدا "أنجيل" و"لوتورمان" التي غدا إثبات التهمة عليها ثأرًا شخصيًّا بيني وبينها.. ذلك الصراع بداخلي، المظلم والمربك للغاية، والذي يشتعل حد

الجنــون والثــوران بمجــرد رؤيتــي لامــرأة جريئــة، تمــزج بــين الغضــب والكبريــاء، الغــرور والثقــة، والأمــل والعزيمــة في قالــب واحــد.. والحــق أن لوتورمــان أجــادت صنــع هــذا القالــب ببراعــة، لــذا لــم أتــردد أبــدًا في كــسر عزيمتهــا، ولا تهــزم المــرأة إلا بســلبها رمــز حبهــا، الــذي لا تمنحــه إلا بصــك خُتــم مــن صميــم قلبهــا، أمــا أنــا فلــم أكــن بحاجــة إلى هــذا الصــك، وهــو مــا رأتــه بــأم عينهــا.

أمــا "أنجيــل" فمارســت عليهــا أنــواع التعذيــب كافــة، لكنهــا في كل مــرة أثبتــت لي مــدى صلابتهــا، وكأنهــا تدربــت عــلى التألــم في صمــت، وجُبلــت عــلى تحمــل الصعــاب مهمــا اشــتدت، لكننــي لــم أتوقــف، وحتــى في أوقــات راحتــي أمــرت الجلاديــن باســتكمال مــا بدأتــه، فــلا بــد مــن معرفــة مــكان الطفلــة الهاربــة حتــى لا تســتمر اللعنة لعقــود متتاليــة، إلا أن المــرأة تمســكت بصمتهــا، وقــد أخبرتنــي نظراتهــا المتحدية أن الحــرق في نظرهــا لا يســاوي شــيئًا أمــام شــعورها بالانتصــار حتــى الرمــق الأخــير.

16/ 12/ 1768 وأخيرًا يا ماريان، جاء اليوم المشهود..

حيث اجتمع المواطنون قبل بزوغ الشمس، ينتظرون الحدث الجلل المقبلين عليه، فقد مرت عقود لم تشهد فيها باريس يومًا كهذا، إذ عملنا لأيام متتالية على تثبيت مجموعة كبيرة من الأوتاد المتينة، في منطقة مترامية الأطراف، ومن حولها جمعنا أكبر قدر من الحطب، وبحلول الصباح علقنا على مقدمة كل وتد ساحرة، مغطى وجهها بكيس قماشي، ومن خلفها أحكمنا ربط ابنتها -إن وجدت-، ثم رميتُ مشعلي أولًا بعد افتتاح المحاكمة، ليرمي الآخرون مشاعلهم بالتبعية، ما بين حارس وراهب وفلاح وخادم، فالجميع تطوع للاشتراك في عملية التطهير.

مضت قرابة ساعة وأنا أراقب النيران المندلعة والأجساد المتآكلة، بين صرخات الساحرات ومحاولات فرار أطفالهن، لكن تركيزي انصب نحو الوتد المعلقة عليه المتمردة "لوتورمان"، كذلك "أنجيل" التي رمقتني بنظرة منتصرة قبل تغطية وجهها في المكتب المقدس، لتساق إلى عربة البهائم مع مثيلاتها، ورغم أنني لم أر وجهيهما في تلك اللحظة لأستمتع بصرخاتهما، فقد شعرت بسعادة لم أشعر بها من قبل.

لا أنكر أن الضباب الأسود أغشى عيني، ورائحة الدخان أثارت معدتي وأشعلت رغبتي في التقيؤ، إلا أن

رائحة احتراق اللحم طغت على هذه الرغبة، وتصفيق الواقفين وإعلاؤهم علامة النصر، جعلني أتلذذ بها كحفلة شواء على شرف أجود أنواع النسور والخنازير، بينما أقف منتشيًا، تُخالج صدري مشاعر الفخر والهيبة وسط القساوسة والرهبان، والذين أقروا في ذلك اليوم باستحقاقي لمكانتي في المكتب المقدس.. متمنيًا لو أن والدتي بقسوتها وحزمها مطلعة على هذا المشهد، لترى أين وصل "الأب ليوني"، أو "ليو الضعيف" كما اعتادت مناداتي.

***

تقوقعت "ماريان" على نفسها أكثر وغزا الاشمئزاز تعابير وجهها، بمجرد انتهاء "ليوني" من سرد القصة، ثم شنفت إليه وقالت:

- لا أصدق أنكم حكمتم على امرأة وأقمتم محرقة كاملة، لمجرد أن الخنزير مات أمام كوخها.. أي معتقدات هذه؟ وأي عقيدة منحتكم صك الحرق والتعذيب بهذه الوحشية!

- انعدام قناعتنا بأمر ما، لا ينفي جزءًا من صحته، ولا يبرر لنا التقصير في واجبنا تجاه الوطن.

- الوطن! إن كان ما تقوله صحيحًا، فلماذا لم يحقق أحدكم في مقتل الفتاة التي حاولت "لوتورمان" معرفة قاتلها؟ ولماذا سمحتم بانعدام الأمن والأمان من الأساس؟ والأكثر رعبًا ووحشية، أنك أحرقتها لمحاولتها تحقيق العدالة، وصدقت ادعاءات هؤلاء العبيد.

سكت "الأب ليوني" مكتفيًا بسماعها، محاولًا ألا يثير غضبها أكثر، ثم تابع مستمرًّا في إبعاد التهمة عن نفسه:

- ما يهمني الآن إثبات أنني غير مسؤول عن مقتل أبيك يا ماريان.. "لوتورمان" تحاول الثأر لنفسها من "فيكتور" أولًا، والذي كان المتسبب الرئيس في إقامة المحرقة، بعد إبلاغه عن المرأة البدينة، وبالطبع لتخلص ثأرها مني بالتبعية. ورغم عدم وجود أدلة قاطعة، فإنني لم أجد تفسيرًا آخر، خاصة بعد رؤيتي التاريخ

المنقـوش عـلى رأس "فيكتـور"، كذلـك وضعيـة الجثـة.

اتـكأ عـلى طـرف السريـر محـاولًا النهـوض، والتغلـب عـلى ألـم معدتـه المتزايـد، ثـم تابـع:

- لـم يعـرف "فيكتـور" شـيئًا عـن "لوتورمـان" ولـم يـتردد اسـمها أمامـه مـن قبـل، لـذا فقـد انسـاق وراء نبوءتهـا دون تفكـير، وهـو مـا أخبرنـي بـه عنـد اسـتجوابه، بـل وأخبرنـي أيضًـا بظهورهـا لـه في أيامـه الأخـيرة، إذ تنبأت بأنـه سـيغدو رأسًـا بـلا جسـد في سرداب مظلـم، والغريـب أننـا بالفعـل نقلنـا رأسـه إلى أحـد السراديـب بعـد حـرق جثتـه، فقـد عانينـا لأعـوام مـن مشـاكل صحيـة بسـبب المقابـر التـي تراكمـت بهـا الجثـث المتحللـة، وعجـت بمئـات الهيـاكل البشريـة، حتـى فاحـت رائحتهـا في أرجـاء باريـس.

لقـد تحققـت نبـوءة لوتورمـان يـا ماريـان، وحتـى الآن لا أعلـم، هـل أحاربهـا أم أحـارب شـبحها!

- شبحها! وهل توجد أشباح في مدينتنا يا سيدي؟

- ليو.. نادني "ليو".

- هل توجد أشباح في مدينتنا يا ليو؟

- وهل لديك تفسير آخر؟

- لمـاذا لا تفـترض أنهـا هربـت مـن المحرقـة! والسـاحرة البدينـة أيضًـا، أو أن أحدهـم سـاعدهما وقـام بتبديلهمـا مـع

أخريات قبل تغطية وجهيهما؟ من أين لك بهذه الثقة وجميعهن غطت وجوههن أثناء الحرق؟

غرق "ليوني" قليلًا في أفكاره.. لقد طرحت أمرًا هامًّا لم يضعه في حسبانه من قبل، فما أدراه أن أحدهم لم يتربص به منذ زمن ويتلاعب به.. ربما الرجل الذي سلم المظروف هو نفسه من ساعد في تهريبهما! وربما هما على قيد الحياة حتى هذه اللحظة، لذلك رمقته الساحرة البدينة بتلك النظرة قبل تغطية وجهها، فقد علمت أنها ستلحق بابنتها التي هربت ولم يعرف لها أي أثر.

- "أيعقل؟".

صاح بها في وجه "ماريان" التي تراجعت للخلف مذعورة وقالت متلعثمة:

- أنا فقط، أفترض. أرجوك لا تأخذ كلامي على محمل الجد، فأنا أفترض من واقع بعض الأساطير المتداولة عن الساحرات صاحبات النوايا الحسنة، اللاتي يسعين لتطهير الأرض من شرور البشر وتحقيق العدالة، ونصرة المظلوم والفقير باستخدام قدراتهن الخارقة، فقد سمعت أن لهن مهارات متعددة، تنتمي للخير أيضًا مثل انتمائها للشر.. وربما.. ربما هذا ما تحاول الساحرتان فعله منذ زمن، ولهذا السبب تحديدًا اتخذتا قرارهما بالهروب.

- تقصدين أننا نعيش في بلدة تخلو من العدالة؟ لن أخالفك الرأي هذه المرة، نعم يا ماريان أنت محقة، فلو أن الدنيا عادلة بما يكفي، لما وقعت من بين نساء الأرض في غرامك أنت، رغم يقيني التام بأنك لا تُكنين لي سوى مشاعر الكره والحقد، والآن أقف بكل هيبتي مستمعًا لحديثك، منصتًا لتوبيخك المستتر، محاولًا الدفاع عن نفسي، دون أن أحرك ساكنًا. أرأيت أننا جميعًا نعاني قلة العدل!

طرقت الخادمة طرقات متتالية، فأجفل "ليوني" وأمرها بالدخول.. انحنت له وسلمته رسالة عاجلة، بعدما أخبرته أن أحد رهبان الكنيسة جالس في الردهة في انتظاره.. فتح الرسالة المكونة من خبر لم يتعد الأسطر العشرة، فاكفهر وجهه وتبدل لونه عدة مرات، ثم غمغم مطلقًا بعض اللعنات ونظر إلى ماريان التي طاطأت رأسها، خشية نظراته المنبثق منها الشرر:

- أخبرتك أن لوتورمان لن تترك ثأرها! لقد تركت "جاك الرسام" مقيدًا في غرفته، وها أنا أتسلم رسالة شديدة اللهجة من الكنيسة، إذ وجده أحدهم مقتولًا في أحد الأزقة، وبالطريقة ذاتها التي ذبح بها فيكتور.. والآن سيُحملونني المسؤولية كاملة، فهروب أحد السجناء وقتله لا يعني سوى الإهمال والتساهل في عملي.. تلك الساحرة اللعينة لن يهدأ لها بال إلا بعد إقالتي من

منصبي، وإلحاق الفضيحة بتاريخي الحافل بالخدمات والإنجازات.

ثم صاح مسرعًا الخطى نحو باب الغرفة:

- أعدك أن أجدها يا ماريان، وحينها سأفصل رأسها عن جسمها، أمام باريس بأكملها.

***

لم تمنح الذكريات الموحشة "ماريان" فرصتها، ولم يسعها الوقت للدهشة مما سمعته قبل قليل، إذ أغمضت عينيها رغمًا عنها، ثم تذكرت نفسها في الصغر، عندما حاولت مرارًا اقتحام عالم السحرة والشياطين، وهي رغبتها التي أخفتها عن أبيها، فلطالما بحثت بنهم بين ثنايا قصص العجائز، واسترقت السمع بين الفلاحات، تحاول التقاط أماكن النساء غريبات الأطوار من بين أحاديثهن المتناثرة عن حوادث ومواقف غريبة عاصرنها، أو ادعاء إحداهن رؤيتها الشيطان متجسدًا في هيئة قط، أو ربما كائنًا هلاميًّا يسير بلا قدمين، يقتحم الأكواخ والمنازل ليلًا بحثًا عن فريسته التي تنطبق عليها سمات الساحرات، أو على أقل تقدير تملك مفاتيح الدخول إلى عالمهم.

لقد امتلكت "ماريان" ذاكرة قوية، تختزن كل ما يمر على عينها أو تلتقطه أذنها، وإن كان ذلك عن طريق الصدفة،

لـذا فهـي لـم تنـس أبـدًا ليلـة تسـللها بجانـب أحـد الأكـواخ، عقـب سـماعها لبعـض الترانيـم التـي اسـتقطبتها لشـدة غرابتهـا، حيـث جلسـت إحـدى السـاحرات -بحسـب ظنهـا- ووجدتهـا تسـتدعي كائنًـا في صـورة كلـب أسـود، وأخـذت تسـأله ويجيـب بـكل مـا أرادت معرفتـه أو طلبـت تنفيـذه.

بعدئـذ نـادت السـاحرة بصـوت جهـوري، وأتبعـت نداءهـا بضحكـة جمـدت الدمـاء في عـروق "ماريـان"، فهـي تنـادي اسـمها، أي إنهـا تعلـم بوجودهـا منـذ اللحظـة الأولى، إلا أن ماريـان لـم تحـاول الهـرب، بـل اقتربـت بـكل شـجاعة ووقفـت تحـدق في عينـي السـاحرة البيضاويـن، لتسـألها أن تعلمهـا شـيئًا مـن سـحرها، علّهـا تتمكـن مـن اسـتخدام قدراتهـا لإعـادة أمهـا إلى الحيـاة، لكنهـا لـم تنـس كذلـك ابتسـامة السـاحرة التـي ارتسـمت فـورًا عـلى وجههـا، وذلـك قبـل أن تلمـس يدهـا بكفهـا البـاردة، لتقـول بحميميـة لا تتـلاءم مـع ملامحهـا القاسـية: "ماريـان الصغـيرة، تشـبهين أمـك في الكثـير مـن صفاتهـا، وتتحلـين بشـجاعتها المفرطـة أيضًـا، لكنـك لـن تكتسـبي علمهـا الواسـع وقدراتهـا الخارقة بهـذه السـهولة.. لـم يحـن الوقـت بعـد.. لـم يحـن".

تذكـرت كيـف غـادرت حينهـا والشـك يملؤهـا، ثـم هرعت تسـأل أباهـا عـن سـبب انتحـار أمهـا، فطالمـا تحـاشى الحديـث معهـا في هـذا الأمـر، رغـم محاولاتهـا العديـدة، فجاء رده الـذي لـم يتغـير بمـرور الزمـن، ليخبرهـا أنهـا يئسـت

مـن حياتهـا وانتحـرت إثـر حالـة حـزن شـديدة، عقـب مـا عانـوه مـن فقـر لأيـام وشـهور، لـم يخالـط جوفهـم سـوى المـاء وبعـض الوجبـات التـي بالـكاد مـلأت نصـف بطونهـم.

والآن عـادت تفكـر مـن جديـد في كلام أبيها وتلك السـاحرة، فكيـف تصـدق أنهـا تحمـل صفـات أمهـا الضعيفـة! ولـو أنهـا بالفعـل تحلـت بالشـجاعة المفرطـة، وعُرفَـت بأنهـا ذات علـم وقـوى خارقـة، فكيـف استسـلمت وانتحـرت دون مقاومـة، هكـذا بسـهولة!

أحدهمـا يكـذب بالتأكيـد، وربمـا يخفـي سرًّا مـا، وهـو مـا عزمـت عـلى معرفتـه في الأيـام القادمـة.

تبـدل مظهـر الغرفـة فجـأة، وشـعرت بالريـاح تتوغـل بـين ضلوعهـا، فارتعشـت مـن الـبرد، ثـم تناثـرت الكثبـان الرمليـة عـلى وجههـا.. حاولـت بصـق الرمـال عـدة مـرات لتتمكـن مـن الاسـتغاثة، لكـن العواصـف أحاطتهـا مـن كل الجهـات.. شـيئًا فشـيئًا بـدأت تـرى مشـهدًا يتكـون أمامهـا، صـورة مشوشـة متقطعـة لسـيدتين لـم تتبـين وجهيهمـا، وأخـيرًا تمكـن منهـا الكابـوس اللعـين، فتأرجـح عقلهـا بـين الوعـي وعـدم القـدرة عـلى الحركـة، مسـلوبة الإرادة، لا يسـعها إيقافـه أو حتـى الاسـتيقاظ منـه.

"مـاذا تفعـل هاتـان السـيدتان في تلـك الأجـواء البـاردة والريـاح العاصفـة؟".

تساءلت كما لو أنها تخاطب شخصًا حقيقيًّا يقف أمامها، لكنها تلقت الرد في مشهد آخر، إذ وقفت السيدة الأولى التي غطت وجهها بالكامل، تحمل طفلة رضيعة بين كفيها، وأمامها السيدة الأخرى تضع كفها فوق رأس الرضيعة، ثم تمتمت ببعض الكلمات ورفعت نظرها للسماء ليصدح صوتها:

"أسألكم يا خدام النجوم أن تباركوا هذه الليلة، وأعوذ بكم من تقلبات الشمس في كبد السماوات.. أسألكم حمايتها وأن ينبثق نجمها الآن كاسحًا معه أكبر النجوم وأعظمها، وأعيذكم أن ينطفئ وهجه إلا وقد صفت سماء مدينتنا الملبدة بالظلم والطغيان.. أسألكم باسم الرب في العلا وفي الأرض، ألا تحترق سفننا إلا على أجساد الرهبان والقساوسة ورؤوس الخونة والنبلاء، فلتُنزلوا بهم صواعق من العذاب في السماء، ولتلفظهم الأرض بيد الشرفاء، فيتيهون غير منتمين إلى أولئك ولا هؤلاء.. أسألكم يا خدام النجوم أن تباركوها، وأقسمت عليكم بتمكينها من صك التطهير (..... ابنة ا ن)".

***

شهقت "ماريان" فجأة، وشعرت بوخز خفيف في رأسها المتصارعة فيه الأفكار، ثم بدأت رؤيتها تتشوش واختفى الصوت تدريجيًّا، فلم تسمع الاسم المذكور.. حاولت إغماض عينيها مرة أخرى، إلا أن الهمسات

المتداخلة، والصرخات المدوية تزامنًا مع الرياح التي صفعتها من جديد، جعلتها تهرول بقدر ما مكنتها قواها الخائرة، متخذة قرارها بالفرار من الغرفة، بل الهروب من المنزل بأكمله، تمامًا كما أمرتها "لوتورمان" يوم المحاكمة.. على الأقل ستنجو من الأهوال الملاحقة لها، وحتى إن كُتب لها الموت، فلن يكون القبيح "ليوني" آخر وجه تراه.

المكتب المقدس

بعد مرور ساعة

- لكنني أفنيت عمري في خدمتكم يا سيدي.. جميعكم تعلمون ما قاسيته والجهد الذي بذلته للتقرب من مجلسكم الموقر.. لقد كرست حياتي لخدمة الكنيسة والعقيدة وأنا ابن خمسة عشر عامًا، حتى أثبت جدارتي وتيقنتم من إخلاصي واستحقاقي لهذا المنصب، ولولا جهودي المضنية في حماية باريس، ما أوكلتموني مهمة تطهيرها من كل خائن ومدنس للعقيدة، ومهرطق يبث أفكاره الخبيثة في نفوس الضعفاء.. أبانا العظيم، أنا عينكم الساهرة وآذانكم المصغية وعقلكم المدبر.. والآن بعد مرور كل هذه السنوات تريدون إقالتي!

أنهى "ليوني" كلماته بينما يجثو على ركبتيه خاضعًا، متذللًا، باحثًا عن العدل والعرفان بالجميل في أعين المجلس المنعقد لاستجوابه، لكن "الأب لينكولن" استنهضه ثم مد يده ليقبلها، قائلًا:

- الأخ ليوني، لقد أسأت فهمنا تمامًا، من قال إننا سنقيلك من منصبك؟

استقام "ليوني" ومد عنقه بخيلاء، مستعيدًا صلابته، ثم قال بابتسامة عريضة:

- لطالما وثقت في عدالتكـ..

قاطعه "الأب لينكولن" مسترسلًا:

- بـل سـنحاكمك. قبـل كل شيء، عليـك التأكـد مـن شـعورنا بالامتنـان والعرفـان تجـاه خدماتـك منقطعـة النظـير، للكنيسـة والوطـن، وإقـرارًا منـي بذلـك سـأحاول إقناعهـم بحفـر اسـمك عـلى حجـر في الديـر، إحيـاء لذكـرى خدماتـك إلى الأبـد، لكـن أرجـو أن تتفهـم موقفنـا، فإطـلاق سراحـك يناقـض مبـادئ إيماننـا، وقـد يظـن البعـض أن كنيسـتنا الموقـرة تشـك في قـدرة اختبـار السـؤال.

جحظت عينا "ليوني" وتساءل بصوت خافت:

- هـل.. هـل سـأخضع لاختبـار السـؤال مثـل بقيـة المتهمـين؟

- بالطبـع.. حينهـا فقـط سـتثبت صحـة أقوالـك ودفاعـك، أو ربمـا حـدث العكـس.

- لكـن، سـيدي، أنـت تعلـم جيـدًا كمـا أعلـم أن الخضـوع لاختبـار السـؤال لا يـؤدي إلا لنتيجـة واحـدة، وهـي الإقـرار بالذنـب وجميـع التهـم.. أنـت تعلـم كمـا أعلـم أن الألـم يحجـب حواسـنا، ولربمـا طغـى خـوفي مـن التعذيـب عـلى خـوفي مـن الـرب، فمـاذا عسـاي أن أفعـل؟

- لنـرَ إذن.. وإن كنـت بريئًـا مـن التهمـة، فتأكـد أن الـرب سـيقويك لتتحمـل الألم.

- اصفح عني سيدي، ثم أين حقوقي وامتيازاتي؟ هل تساويني الكنيسة أخيرًا بمثل هؤلاء العبيد!

- أتفهم غضبك، لكنني أرجو أن تتفهم موقفنا أيضًا.. نحن أمام جريمتي قتل في غضون أيام، فالرجلان قتلا بالطريقة ذاتها، وكلاهما متهم لديك، وإن لم نحاكمك سنفقد مصداقتينا أمام الجميع، خاصة أن البلاد تمر بفترة عصبية، وبحسب ما أعلنه القصر الملكي فإننا غارقون في الديون، ومتطلبات الشعب تتزايد يومًا بعد يوم، لكن يبدو أن انشغالك بأمور خاصة كما سمعت، جعلك تغفل عما تمر به البلاد.

لقد تقدم بالأمس أكثر من خمسين رجلًا بقائمة متطلبات وتظلمات لرعايا الأبرشية، تضمنت رفع الضرائب (تحديدًا ضريبة الخبز والملح) فبحسب زعمهم الملح الذي يشترونه فاسد ومليء بالأوساخ، بينما طالب آخر بإلغاء المهام عديمة الفائدة من وجهة نظره، مثل رفع الحجارة. أما أحد الأطباء فتقدم بطلبه راغبًا في تقسيم الضرائب بالتساوي، دون استثناء النبلاء والقساوسة.

أرأيت ما آلت إليه الأمور! لا يمكننا تجاهل كل هذه التغيرات الطارئة، ومتابعة الانقلابات والاضطرابات في صمت تام، تاركين العواقب تقع حيث تريد. لا بد من إثبات نوايانا الحسنة، واستقطاب الشعب في صف

الكنيسة أولًا، ولن يتم ذلك إلا بتحقيق العدالة ليعلم الجميع أن تنفيذ الأحكام لا يتوقف على امتيازات الشخص، حتى إن كان أكثر رجالنا تفانيًا وإخلاصًا.

- لكن.. سيدي.. هاتان الجريمتان ارتكبتا بقوى الساحرات الخارقة، وأنا على أتم استعداد لإثبات ذلك، فكيف يقبع سجين مكبل في غرفة محكمة الغلق، بين عدد من الحراس لا حصر لهم، ثم نجده مقطوع الرأس في أحد الأزقة؟ كيف تصدق...

قاطعه "الأب لينكولن" مجددًا، ثم قال بينما يستعد للمغادرة، دون الالتفات إليه:

- القاعدة التي طالما علمتك إياها، أن تصدق ما تراه عينك وليس ما يستشعره قلبك، حتى إن رجحت كفته. أما أنا فأعدك بالصلاة لأجلك، وليرحمك الرب حتى يوم المحاكمة.

***

مضت أيام، أسابيع، ربما شهور.. بات كل شيء ضبابيًّا ومشوشًا، الحقيقة الواحدة الثابتة أنني لا أزال أتجرع ذكرياتي كل ليلة.. حبيبتي.. أخي.. ومؤخرًا أمي التي لا تنفك ملامحها تراودني، بكل ما قاسيتُه في حياتها.. الآن فقط تذكرت كيف استقبلتني يومها بالسباب واللعنات عندما سلمني الحارس ليخبرها بالجرم الذي ارتكبته بتسللي للحديقة، ومحاولتي اختلاس الثمرة المحرمة على أمثالي.

ها أنا أقف في الكنيسة أمام كبير الأساقفة.. أقر بذنبي.. أتطهر.. أتوب.. أعترف بخطيئتي.. أطلب صك الغفران من ذنوبي السابقة واللاحقة التي لا أعلمها، حتى مسح على رأسي وجسدي، وأكد لي بذلك غفران ذنبي وتطهير دمائي من الخطايا.. هكذا اطمأنت أمي، فتوسلت وتضرعَت إليه ليمنحني شرف المكوث بصحبة رجال الدين، من الشمامسة والكهنة والأساقفة، لأنهل من علمهم وأخطو خطاهم، فأصبح بمرور الوقت واحدًا منهم.

لكن، من يخبرني إذن، هل أنا أحد الأساقفة؟ أم كاهن يؤدي فروض الوعظ ويقوم بطقوس التزويج أو الجنازات؟

أشعر بأفكاري تتطاير وتفلت من رأسي، والأرض تختل من تحتي.. ما منعني من السقوط مباشرة هو أنني بالفعل في الهاوية، حتى إنني أشعر بأقدام العابرين فوقي.. أناس كثيرون.. يصيحون ويشجبون، فالتوتر

والقلــق همــا الســائدان هــذه الأيــام، إلى جانــب أصــوات الأعــيرة الناريــة التــي تخللتهــا أصــوات الجمــوع مرددين: "النــصر أو المــوت"، "العــدل والحريــة والمســاواة".

أهي ثورة؟ ربما..

أيضًــا، ثمــة حركــة غــير طبيعيــة، فالكائــن الــذي تحــرك لأول مــرة وتقــدم نحــوي، عــاد أدراجــه ولــم يقــترب منــذ ذلــك الحــين، فمــا خطبــه إذن!

14 تموز 1789

المحاكمة الخامسة

لـم تـبرح "ماريـان" منزلهـا الـذي اختبـأت فيـه إلا مـرات قليلـة، متشـحة بثوبهـا الأسـود، تتخفـى بـين الحشـود للحصـول عـلى وجبـة تكفيهـا ليومـين كحـد أقـصى.. لكـن اليـوم مختلـف بالنسـبة لهـا، بـل لسـكان باريـس كافـة، فبعـد مـرور سـبعة أشـهر مـن هروبهـا قـررت لأول مـرة الظهـور بوجههـا الحقيقـي، حتـى إن اكتشـفت أن "ليونـي" حـر طليـق، أو قابلتـه وجهًـا لوجـه، بعـد انقطـاع أخبـاره بذهابـه إلى المكتـب المقـدس، إذ لـم يعـد مجـال للخـوف بعـد الآن، فقـد أصـدر الشـعب كلمتـه وشـكل حكومتـه في صـورة ميليشـيا، تحـت شـعار "النـصر أو المـوت"، فكانـت لحظـة الانتفاضـة بمثابـة قـرار، تعهـدوا فيـه بصنـع تاريخهـم الجديـد وكتابـة المسـتقبل بأيديهـم.

ورغـم مـوت مـا يقـرب مـن 98 فـردًا في السـاعات الأولى للانتفاضـة، فضـلًا عـن تعريـض حيـاة الألـوف للخطـر، مـا دفـع الكثـير مـن النسـاء للاختبـاء في منازلهـن، فـإن "ماريـان" لـم تستسـلم، بـل انضمـت لصفـوف الثـوار، حتـى إنهـا تقدمتهـم واعتلـت حجـرًا كبـيرًا، ثـم أمسـكت أحـد الخطابـات الثوريـة الملقـاة تحـت الأقـدام، وأخـذت تلقيـه بصـوت عـالٍ، وقـد أضافـت بعـض الهتافـات التـي زادتهـم حماسًـا.. والآن، هـا هـم يخرجـون إلى الشـوارع والأزقـة، فالشـعب بأكملـه يقـف خلـف قيـادة الجمعيـة الوطنيـة مطالبـين بمشـاركتهم في السـلطة، وقـد تجهـزوا

جميعًا للدفاع عن باريس بأرواحهم، بيد أنهم لم يتزودوا بوسائل الدفاع الكافية، ما دفعهم لاقتحام بعض المخازن ومصادرة الأسلحة المكدسة بها.

ومن بين هؤلاء الثوار لمحت "ماريان" امرأة شمطاء تقطع الصفوف بخف ريشة (رغم بدانتها)، ثم فوجئت بها مقابلة لها، تلفح أنفاسها وجهها، فتأملتها هنيهة وأمعنت النظر في ملامحها المرعبة على بشرتها السوداء، وما إن رمقتها المرأة حتى تلاشت الجموع حولهما وأبرقت السماء وأرعدت، فتحول الثوار إلى زخات من المطر، وتبدلت شعاراتهم وصيحاتهم إلى سحب متكاثفة، تتوارى خلف ألسنة البرق التي شقّت جوف الظلام، فباتت كغثاء لا نفع منه ولا ضرر.

أرادت "ماريان" الهرب، إلا أن رغبة ملحة دفعتها للبقاء، وشعورًا داخليًّا أخبرها أنها على بعد خطوات من حل اللغز والغموض المحيط بها، فهي تدرك جيدًا أنها أمام الساحرة "أنجيل" التي عرفت قصتها من الأب ليوني. وبافتراض أنها تقف الآن أمام روحها الهائمة، الراغبة في الانتقام، فماذا عساها فاعلة وهي الحبيسة على أرضهم! يتحكمون بها وفقًا لمشيئتهم وأهوائهم.

هكذا ظلت ساكنة لم يرف لها جفن، تراقب العاصفة المدوية في الأفق، وسرعان ما رفعت "أنجيل" بصرها تنتظر الإشارة، وما إن سطعت نجمة وسط السماء

الملبـدة، حتـى صاحـت بصـوت جهـوري خشـن:

- أسـألكم يـا خـدام النجـوم أن تبـددوا سـحب الظـلام، لتتجـلى الحقيقـة، وينقشـع الغمـوض عـن نجمنـا الأصغـر، فلتخبروهـا بمـا طوتـه السـنون وخفـي عـن العيـون.. امنحوهـا صـك التطهـير، الآن.. "**ماريـان ابنـة لوتورمـان**".

أفـكار لا حـصر لهـا تغلـف عقـل "ماريـان" الآن، وقـد سـافرت بالزمـن نحـو عالـم سـحري لا يمـت للواقـع بصلـة، حيـث طوقتهـا الألغـاز والكثـير مـن التسـاؤلات، وفي أقـل من ثانيـة تصبغـت السـحب باللـون الأحمـر وتكاثفـت مشـكلة وجـه "العرافـة لوتورمـان"، ثـم أطبقـت "أنجيـل" عـلى كفهـا بكلتـا يديهـا ووقفـت تترقـب حركـة النجـوم.

مـرت بضـع دقائـق بينمـا تحدجهـا ماريـان بذهـول وعـدم فهـم، وأخـيرًا تبسـمت "أنجيـل" وقالـت:

- هـا نحـن نقـف عنـد حافـة النهايـة، فلنغتسـل مـن أوجاعنـا وآلامنـا، ولنطـوِ أحزاننـا السـابقة في سـجل النسـيان.. صغيرتـي، أعلـم أن الحقيقـة صادمـة وأقـوى مـن قدرتـك عـلى التحمـل والاسـتيعاب، لكـن ثقـي أنـك سـتجدين الإجابـة عـلى جميـع تسـاؤلاتك.. والآن لا يسـعني قـول إلا أنـك سـتولدين مـن جديـد، بـلا خـوف ولا حـزن ولا نـدم.. الآن فقـط يحـق لـك معرفـة مـا أضمرتـه في نفـسي وأخفيتـه 10 أعـوام، منـذ وفـاة "لوتورمـان"، بـين ترقـب وخـوف وقلـق، بينمـا أتابعـك يومًـا بعـد يـوم، تكبريـن ويشـتد عـودك في

منـزل الخسـيس "فيكتـور" والـذي لا يختلـف كثـيرًا عـن "ليونـي" في انحطـاط أخلاقـه ودنـاءة خصالـه، لكـن مـا باليـد حيلـة، فلـم تكـن أمـك لتصـل إلى مبتغاهـا وتحقـق مـا خططـت لـه منـذ زمـن، إلا بالتخـلي عنـك، وهـو مـا أعانتـه عليهـا "إيفلـين" دون قصـد منهـا.

- العرافـة لوتورمـان، أمـي! أنـت كاذبـة لا محالة، أتوسـل إليـك أن تعيدينـي إلى منـزلي بسـلام، وأعـدك ألا يعلـم بلقائنـا أي كائـن عـلى وجـه الأرض.

انتزعـت "أنجيـل" القـلادة المعلقـة في رقبتهـا ثـم ألبسـتها "ماريـان".. تقدمـت خطـوة للأمـام ورفعـت كفهـا وأردفـت:

- عزيزتـي، اهدئـي وخـذي نفسًـا عميقًـا.. انظـري إلى هذا الكـون الفسـيح الممتـد وتقدمـي معـي نحـو الأمـام.. هكـذا نخطـو نحـو عالمنـا الجديـد، لحظـة بـزوغ فجرنـا الوليـد.. اليـوم سـتنفرج بوابـات النـور عـلى الضعفـاء الشرفـاء، وتصـب لعناتهـا عـلى أرواح النبـلاء.. اليـوم نكتـب عهدنـا بأيدينـا، وتتخضـب سـماؤنا بدمـاء الجبنـاء.

- لا تحدثينـي بهـذه الألغـاز فأنـا أدرك مخططـك الخبيـث جيـدًا، وقـد أخبرنـي "ليونـي" بقصتـك منـذ 20 عامًـا مضـت، وأظننـي كنـت محقـة في اعتقـادي بأنكمـا لـم تُحرقـا ولا تـزالان عـلى قيـد الحيـاة، أنـت وتلـك العرافـة، والآن تريديـن اسـتكمال لعبتـك بممارسـة شـعائرك الشـيطانية وتقديـم روحـي، طمعًـا في الوصـول إلى رغباتـك، لكننـي لـن

أســمح لــك يــا أنجيــل.. لــن أســمح.

سرعان ما غيرت "أنجيل" مسار الحديث متسائلة:

- بالمناســبة يــا ماريــان، هــل تعلمــين لمــاذا لــم يحاكــم "الأب ليونــي" حتــى الآن؟

- لا أعلم.

تأملت السحب مرة أخرى، وبعقل شارد قالت:

- يبــدو أن نبــوءة "لوتورمــان" لــن تخطــئ هــذه المــرة أيضًــا. لقــد تنبــأت بــأن "ليونــي" ســيلقى حتفــه بقطــع رأســه تحــت آلــة ذات إطــار طويــل يحمــل نصــلًا ثقيــلًا حــادًّا، ولــم يعــدم بهــا متهــم مــن قبــل.. حتــى الآن لــم نــر أي ظهــور لهــذه الآلــة، لــذا يبــدو أن أوانــه لــم يحــن بعــد!

- ومــا شــأني أنــا! الأمــر برمتــه لا يعنينــي، يكفــي أننــي لــن أقــضي مــا بقــي مــن حياتــي بجــواره، وليلــقَ عقابــه بالطريقــة التــي يســتحقها.

- كيــف لا يعنيــك، ألا تهتمــين بالطريقــة التــي ســيعدم بهــا والــدك؟

- أبــي! لقــد قتــل أبــي وأُلقــي رأســه في أحــد السراديــب بــين آلاف الأشــلاء.

- لا أتحــدث عــن "فيكتــور" بــل والــدك الحقيقــي، "الأب ليونــي" يــا ماريــان. وهــو الــسر الآخــر الــذي حرصــت عــلى

كتمانــه تقديــرًا لــروح العزيــزة "لوتورمــان"، لكــن الآن وبعــد التغــيرات الطارئــة التــي حدثــت، لــم يعــد بُــدٌّ مــن قــول الحقيقــة.

– ليونــي، هــذا الوضيــع؟! يــا لــك مــن ســاحرة! تظهريــن بعــد كل تلــك الســنوات لتقلبــي حياتــي رأسًــا عــلى عقــب بهــذه الأكاذيــب والأســاطير. لا، مهمــا فعلــتِ لــن أصبــح طعمًــا ســهلًا لــك، فلتذهبــي للجحيــم يــا أنجيــل.

– أنــا لا أقــول الأســاطير يــا ماريــان، لقــد أخــبرك "ليوني" بمــا يعرفــه عــن قصــة "العرافــة لوتورمــان"، لكنــه غفــل عــن الشــق الــذي أخفتــه عنــه. وبالمناســبة، كنت أرى وأســمع حديثكمــا في منزلــه، وقــد تعمــدت إثــارة ذعــرك بالمشــاهد التــي رأيتِهــا، لأعجــل بهروبــك. كمــا أننــي تشــكلت في هيئــة "لوتورمــان" عــدة مــرات، فظهــرتُ لــك يــوم المحاكمــة، تمامًــا كمــا ظهــرت لفيكتــور في ســجنه.

– أنت من قتلته إذن! وجاك، ماذا عن جاك أيضًا؟

تنهدت "أنجيل" حانقة، ثم ولتها ظهرها:

– لــم أقــل إننــي قتلتــه، وأظــن أن ليونــي مــن فعلهــا. كذلــك لــم أذكــر اســم جــاك، فــلا تقحميــه في حديثنــا رجــاء، ومــع ذلــك لــدي رغبــة شــديدة في معرفــة قاتلــه، حتــى إننــي ظننتهــا روح "لوتورمــان". لكننــي عــدت أفكــر، مــا شــأنها وذلــك الشــاب! فلــم تصلهــا بــه أي قرابــة ولــم يكــن بينهمــا

ثـأر وهـي عـلى قيـد الحيـاة. والأدهـى مـن ذلـك أن رأسـه فصـل بالطريقـة ذاتهـا التـي فصلـتُ بهـا رأس فيكتـور. يـا لـه مـن أمـر محـير.

فركت إصبعها ثم عادت تنظر إليها:

- عـلى كل، لقـد انتهـى دوري فقـد أديـت واجبـي امتنانًـا لجميـل لوتورمـان، التـي لـولا خطتهـا مـا بقيـت أنـا وابنتـي عـلى قيـد الحيـاة، نعيـش بأمـان حتـى هـذه اللحظـة، إلا أنـك سـتجدينني أيضًـا بجـوارك إن اسـتدعى الأمـر. أمـا الآن فأظـن الوقـت قـد حـان لـترى إرثـك مـن والدتـك (هـذه المخطوطـة).

أعطتهـا بضـع أوراق، ثـم ودعتهـا ليتبخـر جسـدها سريعًـا.. عندئـذ تصبغـت السـماء بزرقتهـا تدريجيًّـا، فعـاد المشـهد الثـوري يداعـب نظـر "ماريـان" مـن جديـد، إذ وقفـت في أوج الهتافـات، بـين صراخ ونـداء بالحرية والمسـاواة، فأمسـكت بـالأوراق مذعـورة، وراحـت تجـري كالشريـدة بـين الصفـوف، تفكـر فيمـا عرفتـه قبـل قليـل والـسراب الـذي عاشـته سـنوات متتاليـة، لتفاجـأ بهويتهـا المزيفة، وتكتشـف أن حياتهـا محـض أوهـام، أو ربمـا حلـم لـن تفيـق منـه أبـدًا، فالـشيء الوحيـد الموقنـة منـه هـو اسـمها، وحتـى هـذا قابـل للتشـكيك أيضًـا.

هكـذا هرولـت بـكل قوتهـا، إلى أن أعانهـا القـدر ووجـدت نفسـها أخـيرًا مقابلـة لمنزلهـا، فدخلـت وارتمـت بـين أحضان

الأرض الهشة، تلتحف الوهن، وتشهق بين ذراعي الحنين الزائف، فهذا المنزل لا ينتمي لها، ولم تكن جدرانه يومًا ملكها.. لا تعلم كم مضى من الوقت وهي على حالها، لكنها استطاعت أخيرًا النهوض، ثم أسندت ظهرها إلى النافذة التي طالما لجأت إليها، تشكو همها مناجية القمر والنجوم.

أمسكت الأوراق بأنامل مرتعشة وراحت تقرأ، محاولة كبح العبرات الواقفة على حافة أهدابها:

"يا لتعاسة هؤلاء البؤساء، أرمق وجوههم كل صباح، وأترقبهم بين المارة، فالبعض يهرول بين الأراضي الخضراء يحاول التقاط ما يسد رمق صغاره الذين يتضورون جوعًا، وقد التوت أمعاؤهم إثر ليلتين متتاليتين دون طعام. بينما أرى فلاحًا مكلومًا يتفيأ بشجرة صغيرة، بالكاد تتجاوز أوراقها نصف رأسه، وآخر يحمل ثيابه بحرص، خشية سقوط ما جمعه من ثمار -بشق الأنفس- لتلقمها أفواه عصافيره الثلاثة.

أراهم ولا يسعني تخيل معيشتهم، وكيف صمد هؤلاء وأمثالهم لعقود متتالية، يعانون الفساد والطغيان! ففي مدينتنا الساحرة يا ماريان، لا تغرنك المظاهر الخلابة البراقة، فهناك باريس أخرى تقبع على عمق 20 مترًا تحت الأرض، لا يسودها سوى الظلام والصمت، ورفات الأرواح المعذبة لأجساد مقيدة، حيث لا يسمع أنينهم ولا يرى معاناتهم إلا

سـجانهم، المجـرد مـن كل معانـي الرحمة والإنسـانية.

في مدينتنـا السـاحرة يـا ماريـان تفـوح رائحـة المـوت في الأرجـاء، ويكفـي أن تبـدي امتعاضـك مـن فعـل أو كلمـة جارحـة عـلى لسـان أحـد المتغطرسـين، حتـى يتـم تعذيبـك.. أو تثـوري ضـد الظلـم حتـى يتـم حرقـك.. أو تنـيري عقلـك ويتسـع أفقـك لتطّلعـي عـلى الحقيقـة كاملـة، فيتهمونـك بالزندقـة والهرطقـة، وتلقـين حتفـك كحيـوان أعـرض عـن القطيـع ونفـر منهـم.

في مدينتنـا يـا ماريـان، يكفـي أن تنفـق بقـرة أو تحـترق زريبـة أو يمـرض شـخص، حتـى يهيـج الفلاحـون ويتهمون شـخصًا لا يشـبههم بالسـحر والشـعوذة، لينتهـي الأمـر بإخضاعـه لعقـاب جماعـي وقتلـه، إلى أن نظمـت حمـلات كاملـة لمطـاردة العجائـز والأرامـل، أو كل امـرأة غريبـة الأطـوار، لا تشـبه نسـاء مدينتنـا، فينتهـي بهـا المطـاف أخيرًا عـلى وتـد المحرقـة، وتلقـى عقابهـا كسـاحرة أو مشـعوذة، حتـى راح ضحيـة تلـك المحاكمـات أكثـر مـن 40 ألـف امرأة، وبالطبـع تزامنـت هـذه المحاكمـات مـع فـترات الحـروب والمجاعـات وانتشـار الأمـراض والأوبئـة، فالبطـون إذا جاعـت اسـتكانت العقـول، وباتـت مـادة خصبـة للقيـل والقـال وكثـرة الشـائعات.

أمـا أنـا فقـد تمـردت عـلى كل هـذا العبـث، وقـررت الخـروج مـن بـئر العبوديـة، وقـد اعتمـدت في ذلـك عـلى

قدرتي في قراءة الكف والتنبؤ بالمستقبل، بل وتمكنت أيضًا من دراسة بعض أسس علم الفلك والتنجيم، حتى كثفت معرفتي وأخيرًا تعلمت كيفية الاستعانة بحركات النجوم وتسخيرها لخدمتي، على يد أشهر الساحرات، المدعوة "ماريـن ديبغي"، والتي استلهمت اسمك من اسمها.. وقد اتُهمت "ماريـن" فيما بعد بإدارتها شبكة مكونة من 1000 ساحرة، وقيل إنهن يعملن جميعًا لصالح الطبقة المخملية والأرستقراطية، والتي يبدو أن مصلحتهم انقضت فأبلغ أحدهم عنها، فحتى هؤلاء يا صغيرتي يستغلون قدرات الساحرات ويلجؤون لهن إن اضطرهم الأمر.

طالما شكرت الرب أنني لم أعمل لصالح أحد حتى هذه اللحظة التي أدون فيها مخطوطتي، بل اكتفيت بعلمي وسخرت قدراتي -سرًّا- لخدمة العدل الغائب عن مدينتنا، كما حاولت تحذير الكثير من الرجال والسيدات بشكل غير مباشر، من خطرٍ سيداهمهم أو حدث مروع يحل بهم، حتى جاء اليوم الذي التقيت فيه إحدى الفلاحات تسير برفقة ابنتها، وما إن لامست كف الطفلة حتى علمت أنها مصابة بمرض خطير، وسرعان ما طالبت الأم بفحصها وأخبرتها أن حياة ابنتها مهددة بالموت إن لم تسرع بعلاجها، وكعادة هؤلاء، لم تعبأ السيدة بنصيحتي، ولم يمر أسبوع إلا ورأيت الأم

المكلومة تتهمني بأنني سحرت ابنتها وتسببت في مرضها ووفاتها، ومنذ ذلك الحين ترددت الأكاذيب حولي وتناثرت الشائعات على شفاه نساء مدينتنا، ورجالها أيضًا، إلا أنهم لم يجرؤوا على الاقتراب مني، خشية أذيتهم.

ورغم محاولاتي العديدة للاختلاء بنفسي والبقاء وحدي، فإن رغبتي في التطهير لم تنضب، ودموع الفقراء المالحة العاكسة لبذخ النبلاء، لم تفارق عيني، فوجدت إيماني بالتطهير يزداد يومًا بعد يوم، تحديدًا في الساعات الأولى من شهر تموز 1768، إذ بدأت أولى جرائم القتل لإحدى فتيات البغاء، والتي وجدها أحد المواطنين مطروحة أرضًا، وقد فصل رأسها عن جسدها. لكن وسط غياب العدل وتقاعس رجال الدين والقادة، لم تصبح الجريمة الأولى من نوعها، بل امتدت إلى سلسلة من الجرائم المرتكبة في حق كل فتاة استبيح جسدها، وارتضت الارتماء بين أحضان الثمالى، خشية جفاف المشاعر كما هو حال البطون.

مرت الأيام والشهور بين خوف وترقب، فدماء الجثث تملأ الطرقات، وصرخات الفتيات قبل ذبحهن تذيب نياط القلب، ومع ذلك أفلت الجاني بفعلته مع كل جريمة جديدة، إذ لم يجرؤ أحد على تتبع مسار الصوت أو مغادرة منزله، فقد مثل الظلام هاجسًا مرعبًا

لـكل سـكان باريـس، وبـات الجميـع يهـرب مـن رؤيـة بركة الدمـاء الطازجـة، بـل فضلـوا رؤيتهـا متجمـدة بحلـول الصبـاح، مـع اضطراريـة الخـروج للعمـل في رحلـة البحـث عـن قـوت يومهـم.

أمـا عنـي، فقـد انتظـرت اللحظـة المناسـبة للإيقـاع بذلـك المجـرم الوحـشي، وبداخـلي أقسـمت عـلى تسـديد ضربـة موجعـة للمكتـب المقـدس التابـع لمحكمـة التفتيـش، بـكل قساوسـته ورهبانـه وباباواتـه، وعـلى رأسـهم "ليونـي" المتغطـرس، والـذي ذاع صيتـه وسـمعت الكثـير عـن أفعالـه ومحاكماتـه غـير المشروعـة.. هكـذا انتهـزت الفرصـة يـوم علمـت بذهـاب "فيكتـور" الأحمـق للمكتـب المقـدس، ليبلـغ عـن "أنجيـل" التـي اشـتبه في كونهـا سـاحرة، وتسـللت بـين صفـوف النسـاء متخفيـة، ثـم أمرتهـا ألا تـبرح الكـوخ حتـى يلقـوا القبـض عليهـا، وقـد تعهـدت لهـا بحمايـة ابنتهـا وألا يصيبهـا مكـروه حتـى انتهـاء المحاكمـة.

ولأن الوقـت لـم يكـن في صالحنـا لمعرفـة قصتهـا، طلبـت منهـا أن تمـد كفهـا، وبمجـرد لمسـه علمـت أنهـا تعمـل لصالـح المطهـرات في إسـبانيا، واللاتـي ذاع صيتهـن وعُرفـن بإقامـة الطقـوس وإلقـاء تعاويذهـن السـحرية تحـت ضـوء القمـر، لتعزيـز قدراتهـن الخارقـة وتطويعهـا لعمـل الخـير وتقديـم المسـاعدات، وذلـك تزامنًـا مـع حمـلات المطـاردة للسـاحرات في "فرنسـا"، بـل ورأيتهـا أيضًـا تفـر هاربـة مـن

محاكم التفتيش الإسبانية بعدما وشى بها والد زوجها، والذي توغلت العنصرية والعرقية في دمائه، كما تتشرب الأرض سمادها، خاصة بعدما علم أنها ستنجب طفلة من نسلهم، وذلك رغم يقينه بأن ابنه فضلها على كل فتيات عائلته الجميلات، ذوات البشرة البيضاء.

لقد قررتُ في تلك اللحظة أن يسير مصيري وإياها جنبًا إلى جنب، لأنني سأحتاج إليها بمرور الوقت، تمامًا كما تحتاج إليّ الآن.. هكذا نسجت خطة محكمة، بدءًا بالخطاب المزيف، الذي حمل شيئًا من الحقيقة، والذي كتبته على لسان "جان كاميل" قائد إحدى سفن الرقيق. ولو تحرى "ليوني" الدقة وبحث جيدًا ليواجه مرسل الخطاب، لعلم أن هذا القائد متوفى منذ 15 عامًا تقريبًا، لكنه أضعف من المواجهة وأحَط من السعي لمعرفة الحقيقة، لذا فقد انحصر هدفه في إرضاء غروره، محاولًا إثبات التهمة على "أنجيل"، وليس ذلك فقط، بل أطلق حملات مكثفة لمطاردة مجموعة من السيدات المشكوك في أمرهن، وبالطبع كنتُ ضمنهن، بعد وشاية نساء ورجال البلدة الحمقى، الذين طمس جهلهم كل ذرة عقل ميزهم بها الرب.

أيقنت أن "أنجيل" ستصمد تحت التعذيب، مستعينة بقدراتها على ذلك، ولم أكن بحاجة لأكثر من يوم لأتمكن من السيطرة على "إيفلين"، إذ ذهبت لزيارتها

فـور خـروج "فيكتـور" مـن المنـزل، وأخبرتهـا أننـي إحـدى عرافـات البلـدة، مـا جعلهـا تجلّنـي وتعظمنـي، وقـد ازداد تبجيلهـا لي بمجـرد أن بشرتهـا بأنهـا سـتنجب طفلـة جميلـة في القريـب العاجـل.. لا أسـتطيع نسـيان الفرحـة التـي غمرتهـا وعينيهـا اللتـين تلألأتـا بمجـرد سـماعها بشـارتي، وفي الحقيقـة لـم أبـذل مجهـودًا لإقناعهـا بالتخـلي عـن الطفلـة النائمـة بالداخـل، فقـد أبـدت لي السـمع والطاعة دون أدنـى اعـتراض.. ببسـاطة أخبرتهـا أن الطفلـة تحمـل لعنـة السـاحرات، ويجـب التخـلي عنهـا في أسرع وقـت، قبـل أن تتلبـس روح الطفلـة في أحشـائها.

هكـذا سـلمتني الطفلـة دون كلمـة واحـدة، ثـم أمرتهـا بإبقـاء الأمـر سرًّا بيننـا، وإلا أصيـب جنينهـا بمكـروه.. بعـد أقـل مـن سـاعة تمكنـت مـن إخفـاء ابنـة أنجيـل في حظـيرة بعيـدة، تسـكنها أرملـة فقـيرة، ورغـم فقرهـا رحبـت برعايـة الطفلـة سرًّا، مقابـل توفـير الطعـام لهمـا فـترة إقامتهـا، وهـو ليـس بعسـير عـليّ.. وبحلـول الليـل، تزامنًـا مـع حملـة التفتيـش، دوت في أذنـي صرخـة اقشـعر لهـا بدني، وشـعرتُ بقربهـا رغـم بعدهـا، وكأن صاحبتهـا تسـتقطبني "أن هلمـي لإنقـاذي".

أشـعلت شـمعتين وخرجـت أتلمـس طريقـي في الظـلام، محاولـة تفـادي تيـارات الهـواء قـدر المسـتطاع، ولمـا تتبعـت مصـدر الصـوت (بالأحـرى حـدسي)، وجـدت الفتـاة

مقطوعة الرأس وتحتها بركة من الدماء! لكن ما أثار اهتمامي حقًّا أن الدماء جامدة، ما ينفي موت صاحبتها في هذه الساعة، وهنا ازداد يقيني بأن روح الفتاة تحمل لي رسالة خفية. ربما تسعى لإخباري بهويتها؟ وربما أرادت أن تكون نهاية القاتل على يدي!

لكنني لم أطل التفكير، بل عزمت قراري، فالوقت داهمني، وقد علمت أن رجال البلدة ونساءها تفرقوا جميعًا للبحث عني.. حملت الجثة وهرولت لآوي إلى ركن خفي، لكنني وضعت احتمالية العثور عليّ نصب عيني، فهرعت متخفية إلى إحدى السيدات، والتي عملت قديمًا لصالح "مارين ديبغي"، وقد وعدتها بألا أذكر اسمها أو أتسبب لها في أذى، فأنا لا أحتاج سوى دقائق معدودة لتتسنى لي فرصة الاطلاع وقراءة السر الذي تخفيه الجثة.

سرت قشعريرة في جسدي بمجرد أن لمست كف الجثة الباردة.. مشاعر كثيرة اختلطت بداخلي، بين نفور واشمئزاز وشفقة وحزن، وإحساس بالقهر على تلك الزهرة اليانعة، التي بدا من هيئتها وملامحها أنها لم تتعد السادسة عشرة من عمرها، ورغم ذلك لم يرحمها الفقر والجوع، ليستكمل مسيرتهما ذلك القاتل، مدعي الطهر والشرف، والتابع للكنيسة ورجال الدين في كل أوامرهم، بينما عقيدتنا منهم براء.

رأيــت كل شيء جليًّــا أمــام عينــي يــا ماريــان.. رأيــتُ الفتــاة تتســلل ليــلًا، تمــشي بخطواتهــا الهادئــة البطيئــة عــلى الأرض الموحلــة، باحثــة بطــرف عينهــا يمينًــا ويســارًا، بينمــا الصيــاد يتتبعهــا عــن بعــد ليرمــي شــباكه.. شــعره الأســود المســتعار، ونظراتــه الخادعــة اللامعــة بــين الدجــى.. صــوت عوائــه الأليــف كــي لا تستشــعر الفتــاة منــه غــدرًا، وقــد لــوح بثمــرة فاكهــة عــلى ضــوء شــمعة، تراقصــت نظراتــه الشــهوانية عــلى لهيبهــا، تمامًــا كقلــب الفتــاة النابــض فرحًــا وانتشــاء لرؤيــة الثمــرة.

اقتربــت خطواتهمــا فأغمضــتُ عينــي أكثــر.. شــعرت بأنفــاس القاتــل الكريهــة والحمــل الثقيــل الــذي تحملــه الفتــاة بــين ضلوعهــا.. إحساســها بالذنــب لاقترافهــا تلــك الخطيئــة، وصرخــات أمعائهــا المســتغيثة.. الكثــير مــن المشــاعر المتضاربــة المشوشــة لرؤيتــي، حتــى أحكمــت قبضتــي عــلى كفهــا لأُلــم بمــا تبقــى مــن خيــوط القصــة، إلا أن رؤيتــي تشوشــت أكثــر، فقلبــي ليــس مطمئنًّــا، وحركــة النجــوم غــير مســتقرة، تنــذر بحــدث جلــل في الانتظــار.

كــدت أفقــد تواصــلي مــع الفتــاة، إلا أننــي تغلبــت عــلى توتــري وأحكمــت قبضتــي مجــددًا، لكــن الأصــوات التــي علــت بالخــارج أفقدتنــي القــدرة عــلى التواصــل تمامًــا.. تملكنــي اليــأس وظننــت أن الأمــر انتهــى إلى هــذا الحــد، بــل وتأهبــت للقائــي المنتظــر مــع "الأب ليونــي"، إذ اقتربــت

الأصـوات أكثـر، وصفعتنـي ريـاح الجهـل عـلى بعـد أمتـار. قلـت في نفـسي: "لا بـأس، عـلى الأقـل حاولـت". ثـم وقفـت مواجهـة للبـاب اسـتعدادًا للحظـة الاقتحـام.

لكـن، مـن يقـوى عـلى مواجهـة القـدر إذا أراد كشـف سـتاره؟!

انتصبـت يـد الفتـاة فجـأة، وامتـدت نحـوي، وفي لحظـة تسـارعت المشـاهد تباعًـا لتتوقـف أخـيرًا عنـد كلمـة النهايـة، التـي خطهـا القاتـل بيـده، إذ تطايـرت الدمـاء أمـام عينـي وقـد أطـاح الخسـيس بـرأس الفتـاة، بعدمـا اقتلـع جـذور أرضهـا العـذراء، الواهيـة.. اعتـصرت كفهـا محاولـة التغلـب عـلى الأجـواء المحيطـة، ومـا هـي إلا ثـوانٍ معـدودة حتـى اسـتدار القاتـل، مصوبًـا نظراتـه المرعبـة نحـوي.. مزيحًـا شـعره المسـتعار ببـطء.. ممسـكًا بفأسـه الـذي يقطـر دمًـا، وعـلى ثغـره لاحـت بسـمة شـيطانية، لتـتراءى لي ملامحـه في لحظـة حاسـمة، وأكتشـف أننـي أقـف أمـام "فيكتـور".

كنـت لأصرخ وأندهـش لـو أننـا في زمـن آخـر، لكـن، ألـم أخـبرك ألا مجـال للتعجـب في مدينتنـا؟

أفلـتُ يـد الفتـاة لحظـة اقتحـام "ليونـي"، وبمجـرد رؤيتـه أدركـت أنـه خصـم ضعيـف، مجـرد حمَـل يرتـدي زيًّـا وحشـيًّا، لمـواراة جبنـه وسـتر جروحـه وعِلّاتـه.. أبـصرت في مآقيـه الدمـع وقـد تـلألأت صورتـي في مقلتـه اليمنـى، وفي اليـسرى صـورة امـرأة أخـرى لا أعرفهـا، لـذا

تنبأت بسهولة أنني ذكرتُه بإحدى النساء اللاتي مررن في حياته، والتي تركت في فؤاده ندبة كَرِه على إثرها جميع النسوة، خاصة اللاتي يتحلين بالشجاعة والقوة مثلي. وسرعان ما تيقنت من صحة تنبؤاتي، إذ أفصح لسانه عما أضمره قلبه.

مرت أيام وليالٍ من انتزاع الاعترافات الملفقة، تحت التعذيب واستخدام جميع الوسائل غير المشروعة.. كنت أسمع صرخات النساء فيتمزق قلبي، رغم أنني عانيت أضعاف ما عانينه، لكنني مصابة منذ طفولتي بالحساسية المفرطة تجاه المظلومين، وحتى في أحلك أيامي لم أعبأ بمعاناتي بقدر ما حملت ثقل همومهم على كتفَيّ.

بت أفكر في مصائر أطفال هؤلاء النسوة، وكيف ستستمر حياتهم عقب حرق أمهاتهم المتهمات بالسحر والشعوذة! سينبذهم الجميع ولن يرحمهم الصغير قبل الكبير، وأخيرًا توقفت عن التفكير بعدما علمت من حارس الوردية الليلية "مارسيل" أن الكنيسة أصدرت حكمها بحرق بنات الساحرات أيضًا، إيمانًا منهم بأنهن لن يخلفن وراءهن إلا ساحرات صغيرات، دماؤهن ملعونة مثلهن، واللاتي يعلم الرب وحده كيف أنجبنهن.

والآن دعيني أعرفك على "مارسيل"، فذلك الحارس أثبت أن الأرض الفاسدة تنبت ثمارها الصالحة أيضًا،

إذ قبل عرضي منذ اللحظة التي سلمته فيها المظروف المزيف، وطالبته بإيصاله إلى "الأب ليوني" بعدما شرحت له حقيقة الأمر، ووعدته بالثأر لكل من تعرض للظلم على يد "ليوني"، باسم الرب والكنيسة.

لماذا هو! لأنني لمست فيه النبل والطهر وأبصرت في عينيه نظرة الثائر، الذي لا يملك من أمره سوى أن يقول سمعًا وطاعة، تحت وطأة السجان وسياط الجلاد، حتى إنه طالبني بقتل ليوني وتعهد بمساعدتي للإطاحة بعنقه وتخليص باريس من شره، عوضًا عن تسليمه المظروف الوهمي، لكنني أخبرته أن التطهير يحتاج إلى تخطيط محكم وصبر طويل، فبلوغ مآربنا لن يتم إلا باتحاد الشعب وتكاتفهم يدًا واحدة، وإن لم يحدث فلا طائل من قتل ليوني أو حتى 100 من أمثاله.

وبحلول صباح اليوم المشؤوم 16/ 12/ 1768

سارت خطتنا على أكمل وجه، حيث أشرف "ليوني" بنفسه على تقييدنا وتغطية وجوهنا، ثم نقلنا تباعًا إلى عربات الحمير، وبمجرد رحيله، قام "مارسيل" بتبديلي على الفور، بسيدة مقاربة لي في الطول والهيئة، والتي اتهمت بالسرقة وظلت منسية في غرفة التعذيب لسنوات عدة، ولطالما توسلت لإنهاء حياتها لتتخلص من جحيم العذاب الذي تعيشه، لذلك لم تتردد فور سماعها عرض "مارسيل" إذ مثّل لها هذا العرض (طوق النجاة) الذي

تطمح إليه. أما "أنجيل" التي امتلكت قوى تفوق قوتي بمراحل، فعُلقت في الصف الأول، وتعمدت الصراخ أمام الأب ليوني الذي وقف يراقب منتشيًا، لتحقق له انتصاره المزيف، وذلك قبل أن تتبخر وسط الدخان الكثيف والأبخرة المتصاعدة، لتتجلى أمامي في لمح البصر، حيث وقفتُ بجوار ابنتها والسيدة التي اعتنت بها.

لا أنكر سعادتي تلك اللحظة، إلا أنها سعادة ناقصة، يشوبها الحزن ويعتريها الذنب.. ذنب أولئك اللاتي أحرقن دون دليل واحد ملموس، بينما أقف مكتوفة الأيدي، منضمة لصفوف المشاهدين، ولعل عزائي الوحيد وما خفف من حدة هذا الشعور، إيماني بأن ذاكرة التاريخ أطول من أعمارنا، وحتمًا ستخلد هزيمة الظالم، مثلما خلدت دماء المظلوم.

عشرة أيام مرت لم أبرح خلالها الحظيرة برفقة أنجيل وابنتها، والفضل يعود للأرملة الفقيرة التي سخرها الرب لنا، لنحتمي ونختبئ حتى يستقر وضع المدينة. ولما قررت الخروج لأول مرة، لاحظت فيها تغيرات للأسوأ، بين من اعتاد الوضع بعد المحرقة، ومن أقر بأن باريس تخلصت ممن تسببوا في لعنتها وفقرها لسنوات متتالية، وبين من نسي جرائم القتل المتتالية غير عابئ بعقاب المجرم.. أما أنا فقد استمررت في مراقبة "فيكتور" عند خروجي متخفية صباحًا، وبت

أخطط للانتقام منه مساء، مفكرة في حيلة للإيقاع به، فهو لا يعرفني ولم يسبق له رؤيتي من الأساس، وحتى إن رآني لن يتذكرني، فذاكرة الجبناء دومًا ضعيفة.

لكن، لطالما أجبرنا القدر على سلوك دروب أخرى لم نلق لها بالًا، أو نضعها في الحسبان، وذلك الدرب كان أقساها، إذ امتد جذر الخسة إلى أحشائي، وتوغل بين ضلوعي، وسار الطغيان في عروقي مجرى الدم. وهنا انقلبت حياتي رأسًا على عقب، يوم علمت أن "ليوني" غرس بذرته في جسدي الطاهر.

صرخت كثيرًا، وبكيت كما لم أبك من قبل. فكيف أنجب طفلًا من رمز الظلم والطغيان! ممن كرست حياتي القادمة للانتقام منه والقضاء عليه! وأي نسل سأهديه مدينتنا، وأنا التي رفضت الزواج إلى أن تتطهر بلدتنا!

فكرت كثيرًا في الخلاص من الجنين حتى إن خسرت حياتي، لكن نبوءة واحدة غيرت مجرى الأمور، وجعلتني أتمسك به عوضًا عن التخلي عنه، فذات ليلة مقمرة رأيتُ في منامي نجمة صغيرة تتوسط الكثير من الكواكب الكبيرة، ثم تجلى عليها وجه فتاة غاية في الحسن والجمال، لتكتسح الكواكب حولها ويسطع شعاعها، ومن خلفها أبرقت السماء وتعالى صوتٌ أنثوي لم أميزه كثيرًا، ثم قالت بلهجة آمرة: **"يا من أسميت**

نفسك سيدة العرافين.. سيكون نسلك أول الثائرين، فلتمنحيه صك المطهرين، ولكن الحذر كل الحذر من اختلاط الثلج الأبيض بالطين".

اختفى الصوت تدريجيًّا فاستيقظت يغمرني شعور عارم بالسعادة، وقد اطمأن قلبي لأن الرب أرشدني ودلني. حينها فقط قررت الاحتفاظ بطفلتي (أنت يا ماريان).. لكن بقي السؤال الذي راودني كثيرًا ولازمني لعدة أشهر: هل أفر من البلدة بأكملها لأنجبك في مكان لا يعرفني فيه أحد؟ فأمارات الحمل بدأت تظهر، وتعلقي بك ازداد يومًا بعد يوم، حتى نسيت تمامًا أنك ابنة "ليوني" الخائن.. أنت طفلتي قبل كل شيء، وهو سبب كاف يجعلني أتحمل مصاعب الحياة وشقاءها في سبيل الحفاظ عليك وحمايتك، ولن أسمح بتعريض حياتك للخطر إن استدلّ أحدهم عليّ وعلم أنني على قيد الحياة، فما الحل إذن؟

بِتُّ ليالي طويلة أفكر، حتى توصلت إلى حل يضمن سلامتك، ويتيح لي فرصة حمايتك ومراقبتك عن بعد، والأهم من ذلك، سيمكنني من التحكم بفيكتور والثأر منه، إذ علمت من زوجته أنه مولع بقراءة الكف والاطلاع على المستقبل.

أعلم أن ما سأقوله الآن أمر قاس، بل وربما تسبب لك في صدع وجرح لن يندمل أبدًا، لكنني ضحيت

بأجمل لحظات الأمومة وحُرمت من رؤيتك تكبرين يومًا بعد يوم بين أحضاني، لأجلك أنت يا صغيرتي، فلكل حلم ثمن ومقابل ندفعه من أرواحنا وقلوبنا وأعمارنا، وقد اخترت الثمن يا ماريان لأضمن لك مستقبلًا منيرًا، ومصيرًا أقل بؤسًا من مصيري، خاليًا من الظلم والأوهام والوعود الزائفة، مستقبلًا حقيقيًّا ملموسًا، لا يقبل التشكيك فيه، ولن يتحقق ذلك إلا بيدك.

كيف؟! حتى هذه اللحظة لا أعلم، لكنني موقنة من أن الرب سيعينك ويرشدك، تمامًا كما أرشدني للظهور مرات متفرقة لإيفلين، خلال فترة حملها، وقد أعطيتها شالًا وأمرتها بأن ترسل القابلة لي، حاملة طفلتها فور ولادتها، وذلك بعد تغطيتها بذلك الشال، إذ أقنعتها أنني سأتمكن بسهولة من معرفة ما إذا كانت الطفلة أصيبت بلعنة ما، عقب دخول ابنة "أنجيل" إلى منزلهم.

لم تراوغ ولم تجادلني كعادتها، فهي تعظمني وتنتظر الفأل مني، منذ اللحظة التي بشرتها بأن عقدتها ستحل أخيرًا وتنجب مثلها مثل بقية النسوة في مدينتنا. وقد ازددت يقينًا بأنني أسير على الدرب الصحيح يوم أنرتِ حياتي يا "ماريان" قبل ساعات من ولادة ابنة "إيفلين"، فقد أنجبتك في جوف الليل بينما القمر المكتمل ينير سماء باريس، ما سهّل تطهيرك بعد الاستعانة بخادم النجوم الذي استحضرته

أنجيـل. أمـا "إيفلـين" فأنجبـت ابنتهـا بعـد شروق اليـوم نفسـه، وقـد نفـذت أمـري أسرع ممـا أتخيـل، حتـى إنهـا لـم تنتظـر رؤيـة الطفلـة، أو أن تتعـافى لتجلبهـا لي، ولأنهـا خشـيت كثـيرًا عليهـا فأرسـلتها مـع "فيكتـور" الـذي جاءنـي مسرعًـا بعدمـا أخبرتـه زوجتـه أننـي العرافـة التـي تنبـأت لهـا مسـبقًا.

اختبـأت "أنجيـل" بعيـدًا عـن الأنظـار، بينمـا بقيـت أنـا والسـيدة الأرملـة، ولمـا اقـترب مـن الحظـيرة وجدنـي في انتظـاره، وقـد غطيـت وجهـي بوشـاح أبيـض، ثـم اسـتلمت منـه الطفلـة وطالبتـه ألا يـبرح مكانـه إلا بأمـر منـي.. بدلـت ثيابـك بثيـاب ابنـة فيكتـور، ثـم اعتصرتـك بـين ذراعـي وقبّلتـك قبلـة وداع أخـيرة، إلى لقـاء آخـر لا أعلم موعـده، وهنا انعقـد لسـاني وانفطـر فـؤادي، إذ لـم يعـد للـكلام أي أهمية. فقـط خرجـت لأقدمـك لفيكتـور بأيـدٍ مرتعشـة، وبلسـان بـاكٍ قلت لـه: "آمـرك بتسـميتها (ماريـان) امتثـالًا للنبـوءة".

هـز رأسـه واحتضنـك ورحـل، ثـم دخلـت أتأمـل ابنتـه التـي تعهـدت الأرملـة برعايتهـا، وقـد قـرَّرَت أن تتخذهـا ابنة لهـا، بعدمـا حرمت مـن مشـاعر الأمومـة كل تلـك السـنوات.. جلسـت تتفقـد ملامـح الطفلـة ووجههـا الملائكـي، بمشـاعر مختلطـة بـين فـرح وشـفقة وخـوف مـن المسـؤولية، ثـم نظـرت لي وقالـت: "صوفيـا.. أسـميتها صوفيـا".

***

حتى هذه اللحظة لم تتسَنَّ لي رؤيتك إلا عن بعد، إذ تتبعت أخبارك يومًا بعد يوم. كان كل شيء يسير على ما يرام، فإيفلين تهيم حبًّا بك، وفيكتور لا يقل عنها في مقدار حبه ورعايته. حتى عندما اجتاحت منزلكم حالة فقر شديدة، رأيته يسعى بجد، إذ لم يتوانَ عن محاولة توفير وجبة واحدة على الأقل، يطعمها لك، ما جعل قلبي يرق قليلًا تجاهه.

لكن، كعادة القدر أوصلنا إلى مفترق جوهري، تغير على إثره مجرى الأحداث كلها، وذلك بعد انتحار "إيفلين" دون سبب معلوم. وهنا قررت الظهور لفيكتور باستمرار، أوجهه وأرشده إلى ما أردته أنا. وفي كل مرة لم تخذلني حماقته، والحق أنني لأول مرة أسعد بهذه الحماقة، على الأقل تيقنت من سير حياتك بالشكل الذي خططته، فضلًا عن إمكانية رؤيتك كل يوم بينما تذهبين للعمل بجواره.

وأخيرا يا ماريان تمكنت من الظهور لك في إحدى الليالي.. لمستك بيدي، وشممت رائحتك.. تأملت ملامحك الجميلة الأشبه بقطعة من القمر.. وكم وددت حينها أن أملك قدرًا من الشجاعة التي تحليت بها طيلة عمري، فقط لأتمكن من احتضانك وطمأنة قلبك، فقد خفتِ جدًّا يا صغيرتي فور رؤيتي.. لكنني كنت هشة أكثر منك، وأضعف من مصارحتك بأنني أمك التي تخلت

عنك، وقد ازددت هشاشة عندما لمست كفك ورأيت قلبك محاطًا بسور شائك، وبجانبك "الأب ليوني" مفتونًا بجمالك، لكنه كذلك لا يقوى على الاقتراب من السور. فتذكرت حينها نبوءتي له.

أدركت أنكِ الحب المحرم على قلبه يا ماريان، تمامًا كما فهمت معنى هذا السور الشائك، وسجن عبوديتك الذي سيضيق عليك يومًا بعد يوم.. أدركت أنه سبب شقائك كما ستصبحين أنت سر تعاسته.. اشتعلت جذوة الندم والحقد في روحي، بيد أنني لا أملك من أمري شيئًا، فإما الاستمرار فيما بدأته، أو الحكم عليك بالعذاب والموت. لذا، قررت ألا أراك مجددًا عقب هذا اليوم.

مرت شهور.. ربما أيام طوال أشبه بسنوات شديدة الوطأة، لا أعلم. والآن، هأنذا، اعتدتُ البقاء في الظلام، متراخية، بائسة، أعاني الوحدة اللعينة وأشرب الكثير من الخمر الرخيصة التي فشلت في محو ذاكرتي، لكنني كذلك لم أتوقف عن شربها.. نعم، لقد سيطر اليأس على حياتي وأسدل الليل ستار ذكرياته الأليمة، ومع كل نسمة هواء، تتقلب ذكرى جديدة. وها أنا أسأل الرب الرحمة من التفكير، أو التعجيل بخلاصي، حتى لا يأتي اليوم الذي أنكسر فيه وأجبر على الخنوع أمام "ليوني" لأخبره أنكِ ابنته.

***

صغيرتـــي، في اللحظـــة التـــي تقرئـــين فيهـــا هـــذه الأوراق اعلمـــي أن القـــبر حـــال بينـــي وبينـــك، وكـــم تمنيت لـــو بإمكاني قـــص حكايتـــي عليـــك، عوضًـــا عـــن كتابتهـــا.. لكـــن، في مدينتنا الســـاحرة لا تســـير ســـفننا وفقًـــا لأهوائنـــا.. ألـــم أخـــبرك!

لكننـــي كذلـــك لـــم أفقـــد أمـــلي بـــك يـــا ماريـــان، ومـــا زلـــت موقنـــة مـــن قدرتـــك عـــلى التطهـــير وتحقيـــق مـــا عجـــزت أنـــا عـــن فعلـــه، بتوحيـــد صفـــوف الشـــعب تحـــت شـــعار العـــدل والمســـاواة، والقضـــاء عـــلى الطبقيـــة بأشـــكالها كافـــة.. ربمـــا يســـتغرق الأمـــر عامًـــا، عامـــين، أو حتـــى 10 أعـــوام.. أتوســـل إليـــك ألا يتســـلل اليـــأس إلى قلبـــك، وألا تكُفّـــي عـــن الاطـــلاع والمعرفـــة، فمـــا أقنعـــت "فيكتـــور" بـــضرورة تعليمـــك عـــلى يـــد إحـــدى الراهبـــات المتطوعـــات، إلا لمثـــل هـــذا اليـــوم.

دافعـــي عـــن المظلومـــين قـــدر مـــا اســـتطعت واغـــرسي بذور العـــدل في كل أرض تمريـــن بهـــا.. انثـــري عبـــير الحريـــة أينمـــا وطـــأت قدمـــاك، فالأعـــوام كفيلـــة بتوغلـــه في الأرواح والعقـــول، حتـــى تحـــين اللحظـــة التـــي يتحـــول فيهـــا الاستســـلام إلى كتلـــة مـــن النـــار تتلظـــى، حينهـــا فقـــط ســـيندثر اســـم "ليونـــي" وأمثالـــه مـــن الوجـــود.. ربمـــا لـــن أرى ذلـــك بعينـــي، لكننـــي حتمًـــا سأستشـــعره بروحـــي، بـــل ســـأبقى دومًـــا بجانبـــك، أعاونـــك في مســـعاك قـــدر مـــا اســـتطعت.

لتذكري دومًا أنك ماريان ابنة لوتورمان..

وأنني سأظل أحبك.. للأبد".

بعد مرور ثلاثة أعوام

هـا أنـا أرقـد كجيفـة نتنـة.. وحيـدًا.. ظـلام داج خيّـم عـلى روحـي يخنقهـا ويقتلنـي ببـطء، لكننـي أدركـت الآن أننـي لسـت في القـبر، ولا في قبـو مـا.. أنـا في تلـك البقعـة الضيقـة التـي لطالمـا دخلتهـا بإرادتـي ووقفـت فيهـا رافعًـا هامتـي سـاعات وأيامًـا، لكننـي كذلـك لـم أتعـرف عـلى جدرانهـا الخانقـة، ورائحتهـا الخبيثـة التـي فاضـت بهـا الأركان، حيـث اختلطـت الفضـلات بـكل قطـرة عـرق سـقطت، حاملـة في طياتهـا جـزءًا مـن الإنسـانية والكرامـة، وكل قطـرة دم نُزفـت محملـة بمشـاعر الـذل والمهانـة.

أنـا في البقعـة التـي وقفـت فيهـا شـامخًا، متفاخـرًا، ممارسًـا سـلطتي في التعذيـب، لكننـي ولأول مـرة أراهـا بعـين أخـرى وألمـس وجههـا القبيـح، بينـا أقـف مُقيـدًا، مُعَذَبًـا، ذليـلًا، تقطـر دمائـي مـن جـروح لا تـبرأ.. تحـترق أعصابـي وتشـتعل معدتـي جوعًـا.. تنضـب ذاكرتـي شـيئًا فشـيئًا، فـلا أعلـم حتـى كـم بقيـت هنـا منسـيًّا!

لكننـي عـلى الأقـل عرفـت أيـن أنـا، ففـي هـذه اللحظـة تحديـدًا اسـتقام الكائـن أخـيرًا، ولأول مـرة يدنـو منـي هكذا.. أخـذ يتفحصنـي مراقبًـا انتظـام أنفـاسي ونبضـات قلبـي، ثـم خـرج ونـادى عـلى زميلـه الحـارس "ديمـولان مارسـيل"

ليفتح الزنزانة، وقد تناهى إلى سمعي حديثهما حول استعدادات السلطة لتنفيذ حكم الإعدام بي، وأحد قطاع الطرق، بطريقة جديدة وغير مسبوقة بتاريخ البلاد، وذلك بفضل مطالبة الطبيبين الشهيرين "جوزيف غيوتان" و"أنطوان لويس" باعتماد أداة إعدام جديدة، لتسريع الوفاة وتقليص معاناة المحكوم عليهم.

تبسمت وفي داخلي شعور عارم بالرضا، على الأقل سأحظى بالموت الرحيم، عوضًا عن المعاناة لساعات وربما أيام، حتى ينزف جسدي آخر قطرة دم فيه.. الآن فقط مر شريط حياتي سريعًا، وتطايرت المواقف والأحداث أمام مرأى من عيني، وعرفت من أنا!

وأخيرًا تصالحت مع نفسي القديمة.. أحببتها بعلاتها وندوبها التي لا ذنب لي فيها، وحتى ذنوبي الجسيمة التي لا تغتفر.. احتضنت نفسي وتشبثت بها كطفل صغير، حتى خارت قواي وسقطت يداي، بينما يجرني الحارس كخنزير متعفن نحو ساحة الإضراب، وسط حشود الشعب الذي لطالما صفق لي، وأشاد بقوتي وتطهيري للبلدة من كل آثم.

وهأنذا أمتثل أمام "الأب لينكولن" الذي حضر بأمر من السلطة ليمنحني فرصة التوبة، واضعًا الصليب المقدس بين كفي، والذي ألقيته لاشعوريًّا وبصقت عليه، في حين احتضنه المتهم الواقف بجانبي المدعو "نيقولا

بيليتيه"، محاولًا تقبيله، مستجديًا رأفة السلطة ورحمة الأب.. وبين كثير من الصيحات المطالبة بإعدامي على الفور لتدنيس رمز عقيدتنا، صاح "الأب لينكولن":

- أيها المواطنون، لطالما وقفت الكنيسة في صفوف الثوار، تطالب بالحرية وتنادي بالمساواة. نحن معكم بأفكارنا وأرواحنا ومحبتنا، وعقيدتنا التي لا تقبل الظلم، فلتعلموا أنه لا فرق لدينا بين نبيل غني أو فلاح فقير، وحتى "الأب ليوني" الذي قدم لنا خدمات لا حصر لها، يحاكم أمامكم الآن (متساويًا بقاطع الطريق الوغد الذي هدد أمن المواطنين وسرق ونهب وقتل)، ليعاقب بعد 3 سنوات من سجنه على جرائمه كافة، بدءًا بمحاكماته الجائرة وتعذيبه المتهمين سرًّا، مرورًا بتنفيذه أكبر محرقة للساحرات دون أدلة، وأخيرًا قتله المتهم "فيكتور" في زنزانته، ومن ثم "جاك فرانسيس كابي" المعروف بجاك الرسام.

رفع المواطنون علامة النصر وتهللت وجوههم فرحًا. رقص الصغار رقصتهم، وراح الكبار يهتفون بشعاراتهم المطالبة بالعدل والمساواة، مرددين بعض الكلمات، والتي كتبها على الأغلب أحد الثوار:

طالما كرهت السلام

عاديت الإيمان

ونشرت القبح بأجراس الآلهة

فكنت في قائمة المنبوذين

أول وآخر الأسماء

فلتلفظك الأرض ولتبغضك السماء

***

صديق غادر

حبيب خائن

فلتلفظك الأرض وليلحقك العار

عار القتل.. عار الظلم..

عار السجن مع الأخيار

***

رغم أنف السنين القاسية

خططت نصري، وكرهت ضعفي

وبابتسامة واثقة، ألقيت عليك بتعويذة

أسميتها في سري "هزيمة نكراء"

فلتلفظك الأرض، ولتبغضك سماؤنا الليلة.. فإنها "سماء الشرف...

ســـاد الصمـــت وبـــدا كل شيء معتمًـــا، إذ هـــوت شـــفرة حـــادة عـــلى عنقـــي، فانفصـــل رأسي عـــن جســـدي بسرعـــة لـــم أتخيلهـــا (ويـــا لـــه مـــن مـــوت رحيـــم). أمـــا هـــؤلاء فأظنهـــم ســـيختتمون أغنيتهـــم بكلمـــة (شرفـــاء)، حســـنًا، لا بـــأس، غـــدًا ســـيدركون.. ربمـــا بعـــد غـــد.. لكنهـــم حتمًـــا ســـيدركون.. أمـــا روحـــي فقـــد استســـلمت لراحتهـــا الأبديـــة، راحـــة تحمـــل في طياتهـــا الكثـــير مـــن الســـعادة الممزوجـــة بالألـــم، فأنـــا لا أدري، أقـــدر لي الخـــلاص؟ أم أن عقـــاب الـــرب في انتظـــاري!

المحاكمة الأخيرة

25، نيسان، 1792

حين يراقصني الموت، وإبان تساوي الرقاب (فوق نصلي الحاد) يهتف الجياع والمشردون، بينما يصيح الطغاة والمتكبرون، يشجبون ويستنكرون، وما بين فرّ وكرّ وتدافع بالمناكب والأقدام، تحين اللحظة الحاسمة وتهوي راية النصر من علٍ لتطيح برقبة من ظلم وتجبر، وظن أن الدوائر لن تدور يومًا على الباغي.

أنا هنا لأخبرك أن الظلم زائل والإنصاف قائم، وأن سحب الظلام ستنجلي يومًا، لأقص حكايات على لسان أبطالها الذين اندثروا، وباتت ذكراهم مجرد كلمات خُطت فوق بضعة سطور، قد يقر بها القارئ والمستمع أو ينكرها، بيد أنه لا يملك أحقية تحريفها أو المزايدة على مصداقيتها.

أنا هنا لأقص عليك رواية حق مسلوب، وحلم مبتور، وآمال غلفها الوهم وحطمها الوعد المكذوب.. لكنني رغم عدالتي وصدقي فيما رويته، لن أجرؤ على إخباركم النص المحذوف على لسان بطلتي "ماريان ابنة لوتورمان"، والتي تشربت كأس الساحرات حتى الثمالة، فتوغلت شرورهم الشيطانية في أوصالها، حين اختلطت دماؤها بدماء الساحرة "أنجيل"، يوم استدعت خادمها للتطهير، حيث جرت الشعائر بعكس ما أرادت "لوتورمان"، فاختلط الثلج الأبيض بالطين، واتحد جسدا "ماريان" و"أنجيل"، حتى اكتسبت منها كل خبيث.

لقد استغلت الساحرة "أنجيل" طهر "لوتورمان" ورغبتها في تحقيق العدالة، ودائمًا ما سبقتها بخطوة، فحتى عندما لمست "لوتورمان" كفها في الكوخ، أوهمتها أنجيل بأنها استطاعت قراءة الماضي والتنبؤ بالمستقبل، لكن الحقيقة أن "أنجيل" هي من اطلعت على مستقبلها، وعرفت أنها ستنجب فتاة تحمل صفات المطهرين.

حينها كانت "أنجيل" هاربة، متسللة إلى ضواحي "باريس" لجمع أكبر عدد من الفتيات، اللاتي تنطبق عليهن الصفات المطلوبة لتقديمهن قرابين للشيطان، لأغراض مختلفة، فالمنظمة التي تعمل لصالحها لا تمارس شعائرها إلا على الرضيعات، اللاتي لم تتلوث عقولهن بالحقائق والمعرفة، ولم تعرف قلوبهن سوى الطهر والنقاء، وهي الصفات المنطبقة على الرضيعة "ماريان".

ظلت "أنجيل" تراقبها من بعيد، وتحرسها لتتيقن أن حياتها تسير على النهج المطلوب، وقد دافعت عنها وحاولت حمايتها بكل قوتها، حتى إنها تسللت ذات ليلة إلى عقل "إيفلين" وأمرتها بالانتحار، لمجرد أنها لمحت نظرات الشك والريبة في عينها تجاه "ماريان". أما عن "لوتورمان" فتركتها تموت بمرضها دون نجدتها أو طلب العون لها، وذلك بعدما تيقنت من إنهائها المخطوطة، والتي ستعزز موقفها أمام "ماريان"، عندما تقرأ ما كتبته لوتورمان عنها، والظلم الذي وقع عليها.

انتظـــرت "أنجيـــل" اللحظـــة المناســـبة لتتمكـــن مـــن "ماريـــان" وتحكـــم قبضتهـــا عليهـــا، وكلمـــا اقتربـــت منهـــا خطـــوة، أبعدتهـــا الظـــروف خطـــوات، وحالـــت الكثـــير مـــن التغـــيرات بينهمـــا! حتـــى ظنـــت أن طقـــوس الشـــعائر الشـــيطانية كان بهـــا ثغـــرة.. وبعـــد الكثـــير مـــن المحـــاولات تمكنـــت أخـــيرًا مـــن الســـيطرة عـــلى "ماريـــان" عقـــب هروبهـــا مـــن منـــزل "ليونـــي"، ثـــم تتبعـــت تحركاتهـــا حتـــى يـــوم انـــدلاع الثـــورة، لتلبســـها قـــلادة الأفعـــى (رمـــز منظمتهـــم)، فـــلا توجـــد فـــترة ملائمـــة لبـــدء العمـــل وممارســـة الطقـــوس بحريـــة تامـــة، إلا في أوج الصراعـــات والمعـــارك بـــين شـــعب مخـــدر، وســـلطة تجيـــد التلاعـــب بخطاباتهـــا جيـــدًا.

تكملة القصة...!

لـــم أتمكـــن مـــن المعرفـــة، فقـــد لحقـــت "أنجيـــل" بمصـــير البقيـــة، وهـــا هـــي "ماريـــان" تنتشـــلها مـــن بركـــة الدمـــاء بعدمـــا فَصَلـــتْ رأســـها عـــن جســـدها، تمامًـــا مثلمـــا فعلـــتْ مـــع "فيكتـــور". كذلـــك "جـــاك الرســـام"، والـــذي ســـيطرت عـــلى عقلـــه وأوحـــت لـــه بفكـــرة مضاجعـــة "صوفيـــا"، حتـــى تبعدهـــا عـــن باريـــس بأكملهـــا، إذ تأججـــت نـــيران الغـــيرة بداخلهـــا منـــذ أول مـــرة رأتهـــا برفقـــة "ماكســـيميليان"، والذي مـــال قلبهـــا إليـــه وحـــده وأحبتـــه رغمًـــا عنهـــا، أمـــا هـــو فلـــم يرهـــا مـــن الأســـاس، ولـــم يتعلـــق قلبـــه ســـوى بحبيبتـــه الأولى والأخـــيرة "صوفيـــا".

ولأن "ماريـــان" تؤمـــن بـــأن ســـهام الحـــب إذا غرســـت نصلهـــا في القلـــب، لـــن تنتزعهـــا ألـــف يـــد حانيـــة، فقـــررت الحفـــاظ عـــلى حبيبهـــا، حتـــى إن تـــم ذلـــك عـــلى حســـاب تعاســـته وفقدانـــه حبيبتـــه وصديقـــة طفولتهـــا.. هكذا نســـجت لنفســـها قفصًـــا وهميًّـــا احتمـــت بـــه عـــن أعـــين الناظريـــن، عاشـــت فيـــه الســـعادة وتذوقـــت حـــلاوة الحـــب، مـــع تخيلاتهـــا الجامحـــة بـــين أحضـــان ماكســـيميليان. لكـــن خطتهـــا انقلبـــت رأسًـــا عـــلى عقـــب باعـــتراف "جـــاك" بجرمـــه، وخشـــيت أن يدفعـــه إحساســـه بالذنـــب إلى الكثـــير مـــن الثرثـــرة الفارغـــة، التـــي ربمـــا اســـتنبط أحـــد منهـــا دليـــلًا ضدهـــا.

كانـــت هـــذه المـــرة الثانيـــة التـــي اســـتخدمت فيهـــا "ماريـــان" قواهـــا الخفيـــة وحيلهـــا الأنثويـــة، وطوعتهـــا لغواية الحـــارس "ديمـــولان" ابـــن كبـــير الحـــرس "مارســـيل"، والـــذي هـــام بهـــا عشـــقًا وكان عـــلى اســـتعداد لارتـــكاب أي فعـــل أحمـــق في ســـبيل قبلـــة منهـــا. هكـــذا لـــم تســـتغرق الكثـــير مـــن الوقـــت حتـــى أقنعتـــه أولًا بفصـــل رأس فيكتـــور عـــن جســـده، خـــلال ورديتـــه الليليـــة. ثـــم تهريـــب "جـــاك" الـــذي اســـتقبلَته بوجههـــا البشـــوش، واســـتدرجته إلى أحـــد الأزقـــة لتقطـــع رأســـه، وبهـــذا ألصقـــت الجريمتـــين وتهمـــة الإهمـــال بـــالأب ليونـــي، المســـؤول عـــن قضيتهمـــا. أمـــا عـــن "فيكتـــور" فـــالآن فقـــط فهمَـــت سر جســـده المفـــرغ مـــن الدمـــاء، والرقـــم المنقـــوش عـــلى رأســـه، مـــا أكـــد لهـــا أن روح "لوتورمـــان" لـــم

تنس انتقامها قط. ورغم شعورها بشيء من الحزن بعد موته، والأحلام التي راودتها بشأنه، فإنها الآن لا تشعر بذرة ندم إزاء مشاعرها تجاهه، فهو مجرد مجرم نال جزاءه المستحق، ولا رحمة أو بكاء على أمثاله.

نعم نعم.. أنا هنا لأخبرك أن الظلم زائل، والإنصاف -ربما- قائم، لكن ليس في كل الأزمان، فالبعض لم يثُر في جحره حين دُكت جحور رفاقه، والبعض يرى الحقيقة بعينه ثم ينكرها بلسانه، والبعض يشهد جرمًا في وضح النهار، ويبصر الأفعى تبُخ سمها في وجوه الجميع، لكنه يستكين في منأى متلذذًا بالصمت.

حسنًا، لا بأس بقليل من التخاذل ما دمنا بعيدًا عن الأذى والخطر، تمامًا كما فعلتُ أنا، فقد اتخذتُ صفوف المشاهدين وقررت الاحتفاظ برواية "ماريان"، عوضًا عن حزّ رقبتها بحدّ نصلي، إذ لا يزال في جعبتها الكثير لتخطه بيدها، وأرويه لكم. بيد أني لا أدري هل ستظل فاعلًا أم يقلب لها الزمان ظهر المِجَنّ وتغدو مفعولًا به! فحتى أنا "مقصلة العدل" لست دومًا عادلة!

***

تمت

عن الكاتبة

إسراء حمدي

كاتبة مصرية من مواليد المملكة العربية السعودية، حاصلة على ليسانس تربية وآداب قسم اللغة الإنجليزية، جامعة المنصورة.

روائية، مترجمة، تعمل في تحرير وترجمة المقالات، ونشر لها أكثر من 250 مقال لدى عدة منصات إلكترونية، كما صدر لها مجموعة من قصص الرعب الصوتية.. نُشر أول عمل من سلسلتها "سفراء الجان" في يناير 2022، تلاه "طلسم الدم" يناير 2023، ثم "مساومة على رأس الدجال" 2023. بالإضافة إلى عدة أعمال مترجمة.

***